الطيّب صَالح



٨

ذكريات المواسم



الطيب صالح

مختارات

الطيب صالح

مختارات





SEASON'S MEMORIES

By

El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب

محمود صالح عثمان صالح

First Published in June 2005

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb • www.elrayyes-books.com
• www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21198-5

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

الإهداء

إلى أخي وعمّي علوب صالح، أطال الله عمره.
وإلى روح أخي تاج السر محمد نور وروح أخي وعمّي سيّد صالح الدين قاسموني أفراح الشباب الباكر وحراراته.

١

حين تدلهمّ الخطوب، أتعزّى بعد كتاب الله الكريم، وسيرة الرسول الأمين، أعظم من أظلته السماء، وأقلته الغبراء، أتعزى بشعر العرب. ولو شئت لسقت شعراً كثيراً يصلح لهذه الأيام، ولكن حسبي ذلك البيت من شعر «الأستاذ» الذي لا أملّ من ترديده:

من رآها بعينها شاقه القطّان فيها كما تشوق الحُمول

قال العُكْبري، قال أبو الفتح:

«أي من عرف الدنيا حق معرفتها تيقّن أن أهلها راحلون لا محالة، فلم يجد بين القاطن والراحل فرقاً، فهذا يشوقه وهذا يشوقه، لأن الرحيل قد شملهما. والمعنى: من رأى الدنيا بعينها وتوسّمها بحقيقتها، شاقه القاطن فيها لقلة مقامه، كما يشوقه الظاعن عنها

لسرعة زوالها...».

وأضيف، غفر الله لي، أن أبا الطيب، أراد أيضاً أن يضع حياة الإنسان القصيرة في سياق الأبد، لعل الإنسان يدرك لو يستطيع، كم هي عابرة حياته، وكم هي تافهة مساعيه وطموحاته. والإنسان، لأنه ظلوم جهول، قد يزيّن له غروره أن عمره القصير هو الأبد، وأنه مخلّد في الأرض، وأن لا أحد قبله ولا أحد بعده. ينسى أن أناساً إثر أناس جاءوا قبلنا وأحسنوا وأساءوا، ثم رحلوا. وسوف يجيء بعدنا أناس قد يرون ما نحسبه نحن صواباً، أنه عين الخطل وغاية الحمق.

كذلك أجد العزاء في كتب التاريخ، وقد أعارني منذ أيام صديقي الدكتور محمد إبراهيم كاظم، أحد حكماء العرب في هذا العصر، كتاباً مملوءاً بالحكمة للكاتب الإنجليزي «بروفسر سي نورثكوت باركنسن» عنوانه «تطور الفكر السياسي»، كنت قد قرأت لباركنسن كتابه الشهير «قانون باركنسن» الذي يسخر فيه من البيروقراطية والبيروقراطيين لكنني ما كنت أعلم أنه مؤرخ أيضاً.

هذا الكتاب ليس مرجعاً تاريخياً، ولكنه عرض لحقب متباعدة من تاريخ الإنسانية بطريقة فيها روح الطرافة والعبث، تذكرك بأسلوب المؤرخ الحبر «إي .جي.بي. تيلور». وقد لفتت نظري فقرات يتحدث فيها الكاتب عن علاقات «أثينا» بجيرانها في القرن الخامس قبل الميلاد، أسوقها لكم فيما يلي:

«تجدر الإشارة إلى مثلين من أمثلة السلوك الإمبريالي لمدينة «أثينا» يرجع تاريخهما إلى الفترة التي أعقبت موت «بريكليس» مباشرة.

ففي عام ٤٢٨ق.م. وصلت الأخبار إلى «أثينا» بأن مدينة «متَلين» الخاضعة لنفوذها تُعد العدة للانقلاب عليها والاستقلال بذاتها، فأرسل الأثينيون جيشاً حاصر المدينة بالبر والبحر حتى اضطرت إلى الاستسلام. أعقب ذلك جدل في «أثينا» ماذا يفعلون بالمدينة المهزومة. ونجح «كليون» بائع الجلود في إذكاء حماسة العامة، فصدر قرار بذبح كل رجال «متلين» الذين بلغوا سن التجنيد، وأرسلت الأوامر بالفعل لتطبيق القرار. ولكن الجدل ثار من جديد في اليوم التالي، فقد طالب «ديودوتس» بالرحمة لأهل «متلين» وعارضه «كليون» الذي طالب بما أسماه «العدل» وقال في مرافعته أن مقتضيات النظام الإمبريالي لـ «أثينا» تحتم على الدوام بث الرعب في قلوب الرعايا الرافضين لسلطان «أثينا» وإلّا فعلى الأثينيين أن يتوقعوا ضياع نفوذهم بالانسياق وراء عواطف الرحمة نحو أناس لن يرحموا الأثينيين إذا انتصروا عليهم.

تغلب رأي المعتدلين في هذه الحالة، ولكن حتى هذا لم يمنع الأثينيين من قتل ألف رجل بدلاً من الستة آلاف الذين قرروا قتلهم بادىء الأمر.

بعد أن فتكت «أثينا» بمدينة «متلين» وجعلتها مثلاً، رأى الأثينيون بإغراء من «كليون» أنهم يستطيعون ضربة لازب، أن يرفعوا عن كاهلهم ضريبة الحرب التي أرهقتهم، بمضاعفة «الجزية» التي فرضوها على المدن الخاضعة لسلطانهم، بمقتضى المعاهدات المبرمة بينهم وبين تلك المدن.

أعلنت الزيادة عام ٤٢٥ق.م. وأرسلت طلبات الدفع إلى كل المدن، ولم يستثنوا مدينة «ميلوس» المستقلة التي لم تدخل في ظل نفوذ

«أثينا» ولم تربطها بها أية معاهدة. وقد رفضت «ميلوس» أن تدفع، فانتظر الأثينيون حتى عام ٤١٦ق.م. حيث أحسوا بأنهم يملكون القوة العسكرية الكفيلة لإجبارها على الانصياع. حينئذٍ جردوا حملة إلى «ميلوس» وأرسلوا معها طلب الدفع بأثر رجعي. ويقول المؤرخ اليوناني «ثيوسايْديدس» إن سفراء «أثينا» كانوا صريحين كل الصراحة مع أهل «ميلوس» فقالوا لهم:

«لن نضيع وقتكم في الاستماع إلى حجج مزيفة نبرر بها مطالبنا. لن نقول لكم أننا نستحق الزعامة والنفوذ لأننا حاربنا الفرس نيابة عنكم وطردناهم عن أرض «هيلاس». ولن نتظاهر بأننا ننتقم منكم بسبب أي ذنب ارتكبتموه ضدنا. أنتم تعلمون كما نعلم نحن أن طبيعة الأشياء تقضي بأن تكون «الحقوق» أمراً لا ينطبق إلّا بين أطراف متعادلة في ميزان القوة. القوي حرّ في أن يفعل ما تمكنه قوته من فعله، والضعيف يذعن ويعاني كما تحتم عليه طبيعة ضعفه».

لم يقتنع أهل «ميلوس» بهذا المنطق، وقرروا ألّا يرضخوا لمطالبهم، وقالوا للأثينيين أن الآلهة التي تؤيد الحق سوف تؤيدهم وتنصرهم، فأجابهم الأثينيون بصراحة تامة أيضاً:

«حين تتحدثون عن تأييد الآلهة، فلعلها تنظر إلينا نحن أيضاً بعين الرضى، إذ إن أهدافنا وسلوكنا لا تتعارض بوجه من الوجوه مع ما نعتقد أن الآلهة ترضى عنه ومع ما يفعله الناس بعضهم إزاء بعض. فحسب ما وصل إليه علمنا عن الآلهة التي نؤمن بها، والرجال الذين تعاملنا معهم وخبرناهم، فإن الدول بمقتضى القوانين التي تحكم سلوكها، يحق لها أن تبسط نفوذها إلى أقصى ما تسمح به

قدرتها. وما نحن أول من ابتكر هذا القانون، ولا نحن أول من عمل بمقتضاه. لقد وجدناه في الدنيا حين جئنا، وسوف نتركه لمن يجيء بعدنا. كل ما فعلناه أننا استفدنا منه، ولا يخامرنا أدنى شك أنكم أو غيركم لو كنتم تملكون مثل ما نملك من قوة لفعلتم مثل ما نفعل. وأما فيما يتعلق بالآلهة فنحن مطمئنون تماماً من ناحيتها».

قاومت مدينة «ميلوس» بضعة أشهر، ثم استسلمت، فذبح الأثينيون كل الرجال الذين بلغوا سن الرشد، وأخذوا النساء والأطفال سبايا، وباعوهم في أسواق الرقيق. ولكن السماء لم تغض الطرف عن الظلم الذي حاق بمدينة «ميلوس» ولم تغفر لأثينا غرورها وجبروتها، فبعد ستة أشهر من هذا التاريخ أرسلت «أثينا» حملة ضخمة لغزو جزيرة صقلية، فمنيت بهزيمة نكراء. ولم يحل عام ٤١٢ق.م حتى كانت كل الشعوب الخاضعة لأثينا قد ثارت عليها ورفعت السلاح في وجهها.

٢

لي صديق أردني فلسطيني، أراه من الصالحين، وأرجو أن يكون كذلك إن شاء الله، تطيب لي صحبته، وأجد فيها متعة وفائدة. داره صغيرة بسيطة في ضاحية من ضواحي عمّان. عامرة بالكتب العربية والإنجليزية، والرفوف ملأى بكتب الحديث والفقه وتفسير القرآن الكريم. أسعدني كل ذلك. الضاحية لأنها على ربوة مخضرّة تطل على أودية من هنا وهنا. الهواء المنعش العليل الذي تمتع به خلفاء بني مروان. بساطة الدار. ليس فيها شيء زائد عن الحاجة. ذكّرتني بدار صديقنا صاحب «تفسير التفاسير» في الرياض أبي عبد الرحمن. الطعام صنف واحد، كما استنَّ لنا رسولنا الكريم.

شيء من أرزّ وشيء من دجاج بالمرق وشيء من بقل وخضرة وطماطم. أعدته زوجته التي تحمل شهادة الدكتوراه، وكانت صائمة في ذلك اليوم، وجاءتنا به ابنته الوحيدة. له ستة أبناء وبنت واحدة،

بارك الله له فيهم. كلهم ناجحون، وهو كنيته «أبو ناجح».

يكتب الفقه والحديث والتفاسير، لأنه يترجم القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية منذ عشر سنوات، وقد أصدر مؤخراً ترجمته لسورة البقرة. وأشهد أنها خير ما رأيت من ترجمات. ذلك لأن الترجمة عنده ليست محض عمل، ولكنها تقرب إلى الله وزلفى. وشتان بين أن يترجم القرآن رجل مسلم فتح الله بصيرته على معاني كتابه المنزل، وأن يترجمه مستشرق، سيان عنده كلام الله جلّ جلاله وكلام الجاحظ وابن خلدون.

هذا، إلى جانب حساسية مرهفة لوقع كلام العرب، فهو شاعر مجيد يتذوق جرس الكلمات ويفهم أبعادها ومراميها ويميّز بين ظواهر المعاني ومستبْطناتها. يعلم أن كلام الله بعيد الغور، يجلّ عن الإحاطة والحصر، فيستخير الله، ويُعمل الفكر، ويرجو أن يفتح الله عليه. أين من هذا جهد مستشرق يكون على أحسن الفروض، أعمى من النور الذي يسطع بين يديه! ولو كان لي من الأمر شيء، لمنعت تداول تراجم المستشرقين بين المسلمين. إنني لا أعلم أن مسلماً قد ترجم الإنجيل إلى اللغة العربية، فما لهم يستحلون ما نحرّم نحن على أنفسنا؟

ذلكم إبراهيم أبو ناب، من الناس الذين يمشون على الأرض هوناً، القبيل الذين يحبهم قلبي، وتطيب لي صحبتهم، وأرجو أن أُحشر في زمرتهم.

حدّثني أن ترجمته تعتمد منهاج الاستدلال بالسّياق. لذلك فهو حين يترجم الآية الكريمة من سورة البقرة:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثَلُ الّذين خلوْا من قبلكم مسّتهم البأساءُ والضرّاء وزُلزلوُا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا أن نصر الله قريب﴾ ـ فهو لا يترجم «تدخلوا الجنة» enter paradise كما فعل غيره، ولكنه يترجمها attain to heaven وأنا معه في ذلك، فكلمة attain فيها معنى الحصول على الشيء بعد جهد، وليس مثلها enter التي هي مطلق الدخول.

ولعمري إنه أسلوب في الترجمة سوف يحدث جدلاً كبيراً بين مؤيدين ومعارضين، ولكن المهم في الأمر أنها ترجمة سلسة واضحة، سوف تزيد المؤمنين من غير العرب إيماناً، ولعل الله يفتح بها على قلوب أُغلقت أقفالها حتى الآن.

اليوم أعطاني تفسيراً طريفاً لمعنى «يأجوج ومأجوج» فأنا كلّما لقيته أذهب منه بفائدة. ولعلّه استفاد مني بشيء، فقد تحدثنا في معنى «ضحكت» في الآية، حين ضحكت زوجة سيدنا إبراهيم وقالت عجوز عقيم. وذكرت له بيت تأبط شراً في قصيدته الشهيرة التي يتهدد فيها قبيلة هذيل:

نضحك الضبع لقتلي هُذيل
وترى الذئب نحوها يستهلّ

وهو معنى عجيب نبّهني إليه أخي عبد الله ولد أربيه، من ديار شنقيط، رحمه الله رحمة واسعة، كان إنساناً عالماً وربما، هو أيضاً من عباد الله الذين يمشون على الأرض هوناً، وقد سعدت بصحبته زمناً في الدوحة الميمونة، ثم نكبتني فيه طوارق الدهر، التي لا تترك حبيباً لحبيب.

حدثني إبراهيم أن رجلاً صالحاً من أصفيائه في عمّان، يتردد عليه وينهل من بركاته، قال له ذات يوم، في معرض الحديث عن القرآن الكريم، أن القرآن يثير عنده الشعور بالحزن.

خطر لي بكاء الرسول الكريم حين سمع ترتيل عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، وقلت لإبراهيم:

«لعل صديقك قصد الحزن بالمعنى اليوناني القديم pathos فذلك كما تعلم إحساس أشمل من الحزن. إنه إحساس مأساوي بحالة الإنسان في نظام الكون، فيه معنى الشجى والأسى وربما أيضاً الفرح. وإذا كان إخواننا النصارى يجدون كل هذه المعاني حين ينظرون إلى تمثال الـpieta الشهير لمايكل أنجلو في الفاتيكان، فنحن عندنا أكثر منه بكثير في سورة مريم».

أقول لمن أحاور من إخواننا النصارى:

«اقرأوا قصة ميلاد السيد المسيح عليه السلام في أناجيلكم، ثم قارنوا ذلك بسورة مريم». انظروا أي جلال وأي روعة وأي إعجاز في سورة مريم. سورة تبدأ بالرحمة، وتنتشر الرحمة في ثناياها وصفة الله سبحانه فيها «الرحمن» يصفها الإنسان من قبيل تشبيه الأسمى بالأدنى، كأنها سمفونية موسيقية كبرى. وحين تصل إلى الآية الكريمة:

﴿قال كذلك قال ربُّكِ هو عليَّ هَيِّنٌ ولنجعلَه آيةً للناس ورحمةً منّا وكان أمراً مَقْضيّا﴾

حينئذٍ تدرك كيف تجتمع معاني الأسى والشجى والحزن وفرح البشرى وأكثر من ذلك في معنى واحد.

إنني أجد كل هذه المعاني مجسّمة، حين أستمع إلى سورة مريم بصوت الشيخ محمد رفعت والشيخ عبد الرحمن الدّروي رحمهما الله. الأول هو أمير المقرئين بلا شك، ولكنني أجد في صوت الشيخ عبد الرحمن الدّروي حلاوة لا أجدها في أصوات مقرئين أكثر منه شهرة. وأنت لا تصادفه كثيراً، ومن الإذاعات القليلة التي تذيع قراءاته، إذاعة القرآن الكريم من مكة المكرّمة، وقد كنت أداوم على سماعها أيام إقامتي بالدّوحة.

ما لي ولأبي تمّام؟ إنني أعرف ذلك البيت من شعره منذ أمد ولكنه يبدو لي هذه الأيام كأنني أراه لأول مرة. كذلك الشعر. يأخذ من نوائب الزمان وطوارق الحدثان ألواناً شتى وطرائف عجباً:

أعنّي على تفريق دمْعي فإنني

أرى الشّملَ منهم ليس بالْتقارب

٣

يروي الجاحظ في كتابه «التاج، في أخلاق الملوك»، أن الحجاج أوفد جريراً إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، فلما دخل عليه قال محمد ابن الحجاج:

«يا أمير المؤمنين. هذا جرير بن الخطَفى مادحُك وشاعرك».

فأعرض عبد الملك وقال «بلْ مادحُ الحجّاج وشاعره».

قال جرير، فقلت «إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاء مديحه».

قال عبد الملك «هاتِ في الحجاج».

فقلت: «بل في مدحك يا أمير المؤمنين».
قال: «هاتِ في الحجّاج».
قال جرير فأنشدتُه قولي:

صَبَرْتَ النّفسَ يا ابنَ أبي عُقيْلِ
مُحَافَظَةً فكيفَ ترى الثّوابا
إذا سعَر الخليفةُ نارَ حربِ
رأى الحجّاجَ أثقبَها شهابا

فقال: «صدقْتَ، هو كذلك». ثم قال للأخطل وهو خلفي وأنا لا أراه «قُمْ فهاتِ مديحنا».

فقام فأنشده فأجاد وأبلغ، فقال عبد الملك:
«أنت شاعرنا وأنت مادحنا. قُمْ فارْكبْه».

قال جرير «فألقى النصرانيُّ ثوبَه وقال (جَبّ يا ابن المراغة) فأغضب ذلك من حضر من المُضرية وقالوا:

«يا أمير المؤمنين، لا يُركَبُ الحنيفُ المسلم ولا يُظْهرُ عليه» فاستحيا عبد الملك وقال للأخْطل «دعْهُ».

قال جرير: «فانصرفتُ أسوأ خلق الله حالاً لما رأيتُ من إعراض أمير المؤمنين عني وإقباله على عدوّي، حتى إذا كان يوم الرَّواحِ للوَداع، دخلت لأودّعه، فكنتُ آخرَ من دخل عليه. فقال له محمد ابن الحجاج:

«يا أمير المؤمنين. هذا جرير، وله مديحٌ في أمير المؤمنين».

قال: «لا. هذا شاعر الحجاج».
قلت: «وشاعرك يا أمير المؤمنين».
قال: «لا. أنت شاعر الحجّاج».
قال جرير: «فلما رأيتُ سوء رأيه أنشأتُ أقول:
أتصحو أم فوادُك غيرُ صاحي
فقال عبد الملك «بلْ فُؤادُك».
حتى إذا بلغتُ إلى قولي:

ألـسـتـم خـيـرَ مـن ركـب المطـايـا
وأنْـدى الـعـالمـيـنَ بُـطـونَ راح،

استوى جالساً، وكان متكئاً، وقال:
«بلى، نحن كذلك. أَعِدْ».

فأعدْت البيت، فأشرَق وجهه، وذهب ما كان في قلبه، ثم التفت إلى محمد بن الحجّاج وقال:

«تُرى أُمُّ حَزْرة (زوجة جرير) ترويها مائة من الإبل»؟

قال جرير، فقلت: «نعم يا أمير المؤمنين. إن كانت من فرائض كَلْب فلم تَرْوِها فلا أرْواها الله».

قال «فأمر لي بمائة فريضة. وكانت بين يديه أربعة صحاف من فضة أُهْديتْ إليه، فمددْتُ يدي وأخذت واحدة منها وقلت: «المحلَبُ يا

أمير المؤمنين». يقصد لحلب اللبن.

قال عبد الملك: «خُذْها لا بارك اللّه لك فيها».

ويخلص الجاحظ إلى القول:

«وهذه أخلاقٌ لمن فهمها. وليس بعجب أن تتلوَّن أخلاقهم، إذ كنّا نرى أخلاق القرين المُساوي، والشريك والإلف تتلون ولا تستوي، ولعلّه يجد عن إلفه وقرينه وشكله مَنْدوحة، فكيف بمن ملك الشرق والغرب، والأسود والأبيض، والحرّ والعبد، والشريف والوضيع، والعزيز والذّليل».

٤

يقول الجاحظ في كتاب «التّاج» في باب «إكرام الأوفياء»: «ومن أخلاق الملك إكرامُ أهل الوفاء وبرّهم والاسْتنامة إليهم والثقة بهم والتقْدُمة لهم على الخاص والعام والحاضر والبادي. وذلك أنه لا توجد في الإنسان فضيلة أكبر ولا أعظم قدراً ولا أنبل فعلاً من الوفاء. وليس الوفاء شكر اللّسان فقط، لأن شكر اللّسان ليس على أحد منه مؤونة.

واسم الوفاء مشتمل على خلال. فمنها أن يذكر الرجل من أنعم عليه بحضرة الملك فمَنْ دون.. فإن كان الملك فيه سيِّىء الرأي، فليس من الوفاء أن يُعينه على سوء رأيه. فإن خاف سوْط الملك وسيفه، فأحسن صفاته أن يُمسك عن ذكره بخير أو شر».

ويذكر الجاحظ في هذا السياق، أن سعيداً بن عمرو بن جعدة بن

هُبَيْرة المخزومي، حين حُمل رأسُ مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أُمية إلى أبي العباس السفّاح بالكوفة، قام سعيد فأكبّ عليه، ثم قال:

«هذا رأس أبي عبد الملك خليفتنا بالأمس. رحمه الله». فغضب السفّاح، وطعنه بإصبعه في بطنه.

وانصرف سعيد بن عمرو إلى بيته والناس يتوقعون أن أبا العباس السفاح لا بد قاتلُه. ولامه بنوه وأهلُه وقالوا «عرَّضتنا ونفسك للهلاك». فقال لهم «اسكتوا قبّحكم الله. ألَسْتم الذين أشاروا عليَّ بالأمس بحرّان بالتخلُّف عن مروان، ففعلت في ذلك غير فعل أهل الوفاء والشكر؟ وما يغسل عني عار تلك الفعلة إلّا هذه. فإنما أنا شيخ هامة، إن نجوت يومي هذا من القتل متُّ غداً».

قال، فجعل بنوه يتوقّعون رسُل أبي العباس، أن تطْرُقَه في جوف الليل. فأصبحوا ولم يأته أحد. وغدا الشيخ فإذا هو بسليم بن مجالد. فلما بَصُر به قال «يا ابن جعدة. ألا أبشِّرك بجميل رأي أمير المؤمنين؟ إنه ذكر في هذه الليلة ما كان منك فقال «والله ما أخرج ذلك الكلام من الشيخ إلّا الوفاء، ولهو أقرب منّا قرابة وأمسَّ بنا رحماً منه بمروان، إن أحسنّا إليه».

ويُحكى عن شيرويه أحد ملوك الفرس أن رجلاً اعترض طريقه وقال «الحمد لله الذي قتل أبرويز على يديك وأراح الناس من قهره وعُتوّه وبخله ونكده».

فقال له شيرويه:

«كم كانت أرزاقك في حياة أبرويز؟»
قال: «كنتُ في كفاية من العيش».
ـ «فكم زيد في أرزاقكك اليوم؟».
ـ «ما زيد في رزقي شيء».
ـ «فهل وتَرك أبرويز فانتصرتَ منه بما قلت؟».
ـ «لا».

ـ «فما دعاك إلى الوقوع فيه، ولم يقطع عنك مادة رزقك، ولا وترك في نفسك؟ وما لِلْعامة والوقوع في الملوك؟».

فأمر أن يُنزع لسانه وقال «إن الخرَس خيرٌ من الكلام فيما لا يجب».

ومن جميل ما روى الجاحظ في الوفاء أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور سأل شيخاً من أهل الشام، وكان مقرَّباً إلى هشام بن عبد الملك في حياته، كيف كان هشام يفعل في حربه للخوارج، فكان الشيخ يقول في حديثه «فعل هشام رحمه الله كذا، وصنع هشام رحمه الله كذا».

فغضب المنصور وقال له «قمْ، عليك لعنة الله. تطأ بساطي وتترحّم على عدوّي؟».

فقام الرجل، وقال وهو يهم بالذهاب «إن نعمة عدوّك قلادة في عنقي، لا ينزعها إلّا غاسلي». فقال المنصور «أشهد أنك نَهيضُ حُرّة وغِراسُ شريف. اجلس وعُدْ إلى حديثك».

ولمّا فرغ الرجل، أمر المنصور له بمال، فقال:

«واللّه يا أمير المؤمنين، ما بي حاجة إلى المال. ولقد مات عني من كنتُ في ذكره آنفاً، فما أحوجني إلى الوقوف على باب أحد بعده. ولولا جلالةُ عزّ أمير المؤمنين، وإيثارُ طاعته، ما لبسْتُ لأحدٍ بعدهُ نعمة».

فقال المنصور «للِه أنت! فلو لم يكن لقومك غيرُك لكنتَ قد أبْقيتَ لهم مجداً مُخلّداً».

ويضيف الجاحظ «ويُقال إن الرجل كان من شيْبان».

٥

يذكر الجاحظ في كتابه البديع «التّاج في أخلاق الملوك»، أن السخاء والحياء لازمان للملك السعيد. ويقول:

«ومن أخلاق الملك الكرم والحياء، فهما قرينا كلِّ ملكٍ كان على وجه الأرض. ولو قال قائل إنهما رُكّبا في الملوك كتركيب الأعضاء والجوارح، كان له أن يقول، إذ كنّا لم نشاهد، ولم يبلغنا عمّن مضى من الملوك، ملوك العجم ومن كان قبلهم، وملوك الطوائف وغيرهم، القِحَةُ والبخل.

فأما السّخاء، فلو لم يكن أحدَ طبائع الملوك، كان يجب أن يكون باكتساب إنْ كان الملك من أهل التمييز، وذلك أن الملك يُفيد أكثر مما يُنفق. فإذا كانت هذه صفة كل ملك، فما عليه من اتخاذ الصنائع، وعمّ المتن، والإحسان إلى مَن نأى عنه أو دنا منه من

أوْليائه، والرّحمة للفقير والمسكين، والعائدة إلى أهل الحاجة.

وأما الحياء فهو من أجناس الرحمة، وحقيق للملك إذا كان الراعي، أن يرحم رعيته، وإذ كان الإمام أن يرقّ على المؤتمِّ به، وإذ كان المولى أن يرحم عبده».

وأقول، غفر الله لي، إن أكرم من أظلّته السماء، وأرحم من أقلّته الغبراء، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم. كان أرحم بالناس من الأم على وليدها، ومن الناقة على فصيلها، وكان في سخائه كالرّيح المرسلة. وقد مدحه بحق، أحمد شوقي، أمير شعراء هذا الزمان فقال:

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا
منها وما يتعشّق الكبراءُ
لو لم تُقِمْ لقامتْ وحدَها
ديناً تضيءُ بنوره الآلاءُ
فإذا رحمتَ فأنت أُمّ أو أبُ
هذان في الدنيا هما الرّحماءُ

هذا، وقد خلع الرسول الكريم بُرْدتَه على كعب بن زهير حين جاءه لائذاً ومدحه بقصيدته «بانت سعاد». وقد أخبروا أن معاوية بن أبي سفيان اشتراها منه بثلاثين ألفاً، وفي رواية بثلاثمائة ألف، فكانت شعار دولتهم، إلى أن ورثها الخلفاء من بني العباس. وفي ذلك يقول أحمد شوقي أيضاً ـ رحمه الله وأجزل ثوابه ـ فما أجمل ما قال في مدح الرسول الأمين:

لبِسَتْ بُردَ النبيِّ النيِّراتْ
من بني العبَّاس نوراً فوق نورْ

ثم آلت إلى ملوك آل عثمان، ثم لا ندري.

ذلك وقد انبرى الجاحظ للدفاع عن أبي جعفر المنصور، وقد عُرف عنه البخل. لا غرْو، فقد ألّف كتابه أصلاً للفتح ابن خاقان وزير المعتصم بن هارون الرشيد، وقال في ذلك:

«... نخصُّ بوضع كتابنا هذا، الأمير الفتح بن خاقان مولى أمير المؤمنين، إذ كان بالحكمة مشغوفاً، وعلى طلبها مثابراً، فيها وفي أهلها راغباً، ليبقى له ذكره، ويحيا به اسمه، ما بقي الضياء والظلام».

صدق ظن الجاحظ فقد انطوى ظلّ الفتح من خاقان، وعفّى الزمن على آثاره، عدا أن أبا عثمان العبقري وضع له كتاباً اسمه «التاج في أخلاق الملوك». وفي ذلك عبرة لمن اعتبر.

يقول أبو عثمان مدافعاً عن أبي جعفر المنصور:

«وقد ذكر بعد من لا يعلم في كتاب ألّفه في البخلاء من الملوك، أن هشام بن عبد الملك بن مروان، ومروان بن محمد، وأبا جعفر المنصور، منهم... وكيف يكون المنصور ممّن دخل في جملة هذا القول، ولا يُعلم أن أحداً من خلفاء الإسلام ولا ملوك الأمم، وصل بألف ألفٍ لرجل واحد غيره؟».

ثم يمضي الجاحظ فيورد قصة مؤثرة، يدلِّل بها على كرم المنصور، فيقول:

«وحدَّثني بعض أصحابنا عن أبيه عن زيد مولى عيسى بن نهيك، قال:

دعاني المنصور بعد موت مولاي، فقال:

«كم خلّف أبو يزيد من المال؟».

قلت «ألف دينار أو نحوها».

قال «فأين هي؟».

قلت «أنفقتْها الحُرّة في مأْتمه». يعني زوجه.

فاستعظم ذلك، وقال «أنفقتْ في مأتمه ألف دينار؟ ما أعجب هذا!».

ثم قال «كم خلَّف من البنات؟».

قلت «ستّاً».

فأطرق ملياً، ثم رفع رأسه وقال «أغْدُ إلى المهدي».

فغدوت فقيل لي «معك بغال؟».

فقلت «لم أُومر بإحضار بغل ولا غيره، ولا أدري لمَ دُعيت؟».

فأُعْطيتُ ثمانين ومائة ألف، وأُمرْتُ أن أدفع لكل واحدة من بنات عيسى ثلاثين ألف دينار. ففعلت. ثم دعانى المنصور فقال:

«قبضْتَ ما أمرنا به لبنات أبي يزيد؟».

قلت «نعم يا أمير المؤمنين».

قال «أغدُ عليَّ بأكفائهن حتى أزوّجهنّ منهم».

فغدوت عليه بثلاثة من ولد العكي وثلاثة من آل نهيك من بني عمهن. فزوّج كل واحدة منهن على ثلاثين ألف درهم، وأمر أن يجعل صداقهن من ماله. وأمرني أن أشتري بما أمر لهنّ ضياعاً يكون معاشهنّ منها».

ويختم الجاحظ قصته البليغة بقوله:

«وقلّما استعملت العامّة وكثير من الخاصة التمييز، إيثاراً للتقليد، إذ كان أقلَّ في الشغل، وأدلّ على الجهل، وأخفَّ في المؤونة. وحسبُك من جهل العامة أنها تفضّل السمين على النحيف، وإن كان السمين مأفوناً والنحيف ذا فضائل. وتفضّل الطويل على القصير، لا للطول ولكن لشيء آخر لا ندري ما هو. وتفضل راكب الحصان على راكب البغل، وراكب البغل على راكب الحمار، اقتصاراً على التقليد إذ كان أسهل في المأتى وأهون في الاختيار».

رحمه الله، فما أجمل ما كان يكتب، وما كان أَحْفاه بأهل المروءة والفضل. ورحم الله أبا جعفر المنصور فإن حديث الجاحظ عنه يرفعه من الكرم المحْض، إلى سماء الشهامة والنُّبل.

٦

يلزم الملك السعيد في رأي الجاحظ، ألّا يشغل نفسه بصغائر الأمور، ويقول:

«ومن أخلاق الملك التغافلُ عما لا يقْدح في المُلك، ولا يجرحُ المال، ولا يضع من العِز، ويزيد في الأُبهة».

وفيما يُحكى عن بَهرام جور، أنه خرج يوماً لطلب الصّيد، فسار به فرسه حتى وقع إلى راعٍ تحت شجرة، وهو حاقن. فقال للراعي «احفظ عليَّ عنان دابَّتي ريثما أقضي حاجتي».

فأمسك الرّاعي الفرس، وكان لجامه ملبَّساً ذهباً، فوجد الرّاعي غفلةً من بَهرام، فأخرج من خُفّه سكّيناً، فقطع بعض أطراف اللّجام. فرفع بهرام رأسه فنظر إليه، فاستحيا، ورمى بطرفه إلى الأرض، وأطال

حتى يأخذ الراعي حاجته من اللجام. حتى إذا ظن أنه أخذ حاجته قام، وقال للرّاعي «قدّم إليَّ فرسي فإنه قد دخل في عينيّ شيء من هذه الرّيح، فما أقدر على فتحهما».

وغمّض عينيه لئلا يوهمه أنه يتفقّد حلية اللّجام. فقرّب الراعي فرسه فركبه. فلما ولّى، قال له الراعي «أيها العظيم. كيف آخذ إلى موضع كذا وكذا؟».

قال بهرام «وما سؤالك عن الموضع؟».

قال الراعي «هناك منزلي، وما وطئتُ هذه الناحية قطُّ غير يومي هذا، ولا أراني أعود إليه ثانية».

فضحك بهرام، وفطن لما أراد، فقال «أنا رجلٌ مسافر، وأنا أحقّ بألّا أعود إلى ههنا أبداً».

ثم مضى. ولما نزل عن فرسه، قال لصاحب دوابّه ومراكبه «إنني وهبت معاليق اللجام لسائلٍ مرّ بي، فلا تتهمنّ بها أحداً».

ويُحكى عن أنو شروان، أنه قعد ذات يوم في نيروز، ووضعت الموائد ودخل وجوه الناس الإيوان على طبقاتهم ومراتبهم. وقام الموكّلون بالموائد على رؤوس الناس، وكسرى بحيث يراهم.

فلما فرغ الناس من الطعام، جاءوا بالشراب في آنية الفضة وجامات الذهب. فشرب الأساورة وأهل الطبقة العالية في آنية الذهب. فلما انصرف الناس، ورُفعت الموائد، أخذ بعض القوم جامَ ذهب فأخفاه

في ثوبه، وأنو شروان يلحظه، فصرف وجهه عنه. وافتقد صاحب الشراب الجام فصاح «لا يخرجنّ أحد من الدار حتى يُفتَّش».

فقال كسرى: «لا تتعرَّضْ لأحد» وأذِن للنّاس فانصرفوا. فقال صاحب الشراب «أيها الملك. إنّا فقدنا بعض آنية الذهب». فقال الملك «صدقت. فقد أخذها من لا يردّها عليك، وقد رآه من لا ينمُّ عليه».

وهكذا فعل معاوية بن أبي سفيان، إذ جلس للناس في يوم عيد، ووضعت الموائد وبدر الدراهم والدنانير للجوائز والصِّلات. وجاء رجل فقعد على كيس فيه دنانير. فصاح به الخدم «تنحّ فليس هذا موضعك». ولما سمع معاوية قال «دعوا الرجل يقعد حيث انتهى به المجلس». فأخذ الرجل الكيس ودسّه في ثيابه وقام، فلم يجسر أحد أن يتعرض له. فقال الخادم «أصلح الله أمير المؤمنين. إنه قد نقص من المال كيس دنانير». فقال معاوية «أنا صاحبه وهو محسوبٌ لك».

ويُروى، أن سليمان بن عبد الملك خرج في نُزهة فبُسط له في صحراء فتغدى مع أصحابه. فلما حان انصرافه وانشغل غلمانه بجمع المتاع، جاء أعرابي واختطف عباءة سليمان وطرحها على عاتقه، وسليمان ينظر إليه. فبصر به بعض الخدم فصاح به «ألْقِ ما عليك». فقال الأعرابي «لا ألقيها والله. إنها كسوة أمير المؤمنين وخلعته».

فضحك سليمان وقال «صدق، أنا كسوتُه». فانطلق بها الأعرابي كأنه إعصار.

وجيء لجعفر بن سليمان بن علي برجل سرق منه دُرّة نادرة، وأراد

أن يبيعها ببغداد. وكانت الدّرة قد وصفت لتجار الجواهر، فأُخذ الرجل وسيق إلى جعفر. فلمّا رآه استحيا وأخذته الشّفقة عليه. فقال له «ألم تكن طلبتَ هذه الدُّرة مني فوهبتها لك؟» فباع الرّجل الدُرّة بمائتيْ ألف درهم.

ويزيد الجاحظ قولَه:

«وأنت لا تجد أبداً أحداً يتغافل عن ماله إذا خرج، وعن مبايعته إذا غُبن، وعن التقصّي إذا بُخس، إلّا وجدتَ له في قلبك فضيلة وجلالة ما تقْدر على دفعها. وكذا أدَّبنا نبيُّنا صلى الله عليه وسلّم إذ قال «يرحم الله سهلَ الشراء سهل البيع سهل القضاء، سهل التقاضي»».

هذا، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول «مَنْ خدعنا في الله انْخدعْنا له».

وأُثر عن معاوية رحمه الله قوله «إني لأجرُّ ذيْلي على الخدائع».

وقال أبو تمام:

ليس الغبيّ بسيِّدٍ في قومه
لكنَّ سيّدَ قومه المُتغابي

ويعجبني قول الشاعر الذي يُخفي وراءه كلاماً كثيراً:

بني عمِّنا لا تذكروا الشِّعرَ بعدما
دفنْتُم بصحراء الغمير القوافيا

فـإنْ قـلـتـمـوا أنّـا ظَـلَـمْـنـا فـلـم نـكـنْ
ظـلـمْـنـا ولـكـنّـا أَسـأنـا الـتـقـاضـيـا

وبوسعك أن تتخيّل ما حدث، فمثلُ ذلك ليس منك ببعيد. وحسبُك قولُه (بنِي عمِّنا). وأقول، عفا الله عني إن مِنْ سوء التقاضي، ما هو الظُّلم بحذافيره.

٧

على الملك السعيد، كما يقول الجاحظ أن يقسم يومه أقساماً. أوّله لذكر الله تعالى، وصَدْره لرعاياه وتدبير أمورها وتصريف شؤون دولته، ووسطه لأكله ومنامه، وطرفه للهْوه وشُغله. وعليه ألّا يُثابر على إدْمان الشُّغل في كل يوم، وإن طالت هذه الأقسام بمواضعها، فإنه لن يجد للهو لذّة، ولا للنّعيم روْنقاً ويقول:

ومن أدمن شيئاً من ملاذّ الدنيا، فإنه لن يجد له من اللذة وجودَ القَرِم النَّهم المشتاق. وذلك أن ألذّ الطعام وأطيبه ما كان على جوع شديد، وألذّ المُخالطة إذا اشتد الشبق وطالت العُزْبة، وألذّ النوم وأهنأه ما كان يعقب التعب والسهر».

ويصف الجاحظ أن الخلفاء من بني أمية وبني العبّاس كانت لهم أوقات يُسرّون فيها عن أنفسهم بالسّماع إلى الغناء والطرب، ويقول:

«أما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد، فكان بينهم وبين الندماء ستارة. وكان لا يظهر أحدٌ من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للمغني حتى ينقلب ويمشي ويحرّك كتفيه.. فأما بعض خلفاء بني أمية فكان لا يتحرج أن يرقص ويتجرّد بحضرة الندماء.

وأما عمر بن عبد العزيز فإنه ما طَنَّ في أذنه حرف غناء منذ أن أفْضت إليه الخلافة إلى أن فارق الدنيا. وكان قبل ذلك وهو أمير للمدينة، يسمع الغناء ولا يظهر منه إلّا الأمر الجميل.

وأما أبو العباس السفّاح، فإنه كان يظهر للنُّدماء في أول أيامه ثم احتجب عنهم بعد سنة، أشار عليه بذلك أُسيد بن عبد الله الخُزاعي. وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة «أحسنت والله. أعد هذا الصوت» فيُعاد له مراراً. ولم يكن أبو جعفر المنصور يظهر لنديم قط، ولا رآه أحد يشرب غير الماء. وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعاً، وبين الستارة والندماء مثلها، فإذا غنّاه المغني فأطربه، حرّكت الستارة بعض الجواري، فاطّلع إليه الخادم صاحب الستارة، فيقول له المنصور «قلْ له أحسنت بارك الله فيك». وربما استخفّه الطرب وأراد أن يصفّق بيديه، فيقوم من مجلسه، ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذاك هناك. وكان لا يُثيبُ أحداً من ندمائه وغيرهم درهماً فيكون له رسماً في ديوانه. ولم يُقطع أحداً ممن كان يُضاف إلى مُلهية أو ضحك أو هزل، موضع قدم من الأرض. وكان يحفظ ما أعطى كل واحد منهم عشر سنين، ويحسبه ويذكره له.

وكان المهدي في أول أمره يحتجب عن النّدماء، متشبّهاً بالمنصور،

ثم ظهر لهم. فكلّمه في ذلك أحد وزرائه، فقال له:

إليك عني يا جاهل. إنما اللذة في مشاهدة السرور، وفي الدّنُو ممن سرّني. فأما من وراء وراء، فما خيرها ولذّتها؟ ولو لم يكن في الظهور للنُّدماء والأخوان إلّا أني أعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطونني من فوائدهم، لجعلتُ لهم في ذلك حظاً موفَّراً».

وكان كثير العطايا وافرَها، قلَّ من حضر إلّا أغناه. وكان ليّن العريكة، سهل الشريعة، لذيذ المنادمة، قصير المناومة، ما يملُّ نديماً ولا يتركه إلّا عن ضرورة، قطيع الخنا، صبوراً على الجلوس، ضاحك السّن، قليل الأذى والبذاء.

ويصف الجاحظ أن الهادي كان شكس الأخلاق، صعب المرام، قليل الإغْضاء، لا يبذل إلّا لمن توقّاه وعرف أخلاقه. ويحكى أن إبراهيم الموصلي غنّاه يوماً صوتاً أخرجه عن طوْره من الطرب، فقال له:

«أنت صاحبي، فاحتكمْ».

فقال إبراهيم:

«يا أمير المؤمنين. تُقطعني حائط عبد الملك بن مروان بالمدينة».

قال، فدارتْ عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان، ثم قال:

«يا ابن اللّخناء! أرَدْتَ أن تسمع العامّة أنك أطربْتني، وأني حكّمتك

فأقطعتُك. أَما والله لولا بادرةُ جهلك التي غلبت على صحيح عقلك وفكرك، لضربتُ الذي فيه عيناك».

قال إبراهيم «ثم سكت فرأيتُ ملكَ الموت قائماً بيني وبينه. ثم نادى إبراهيم الحرّاني فقال:

«خُذْ بيد هذا الجاهل، فأدْخله بيت المال، فلْيأخذْ منه ما شاء».

هذا، ويمضي الجاحظ فيرسم صورة لهارون الرشيد، تلفت الانتباه، لأنها خلاف ما شاع عنه، فيقول:

«وكان الرشيد في أخلاق أبي جعفر المنصور، يمتثلُها كلّها إلّا في العطايا والصلات والخلع، فإنه كان يقفو فعل أبي العباس والمهدي. ومَنْ خبّرك أنه رآه قطُّ يشرب غير الماء فكذِّبْه. وربما طرب للغناء، فتحرك حركة بين القلة والكثرة».

ويُخبر الجاحظ عن الأمين نقلاً عن إسحق فيقول:

«ما كان أعجب أمره كله! فأما تبذّله، فما كان يبالي أين قعد، ومع مَنْ قعد. وكان، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب، خرَّقها كلّها، وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا. وكان منْ أعطى الخلق لذهب وفضة، وأنْهبِهم للأموال إذا طرب أولَها».

ويختم الجاحظ حديثه عن الأمين بلفْتة من لفَتاته العجيبة فيقول:

«ولقد حدَّثني عُلّويْة عنه قال: لما أُحيط به، وبلغت حجارة المنجنيق

بِساطه، كنا عنده، فغنّتْهُ جاريةٌ غناءً لم تُحسنه، فصاح:

«يَا كذا. تُغنِّيني الخطأ؟ خذوها».

فحُملت وكان آخر العهد بها».

كأن الجاحظ أراد أن يقول «وكان ذلك آخر العهد بالأمين». فقد أُخذ بعد ذلك وصُلب. وكان آخر صوت سمعه نشازاً. ومع ذلك فقد مدحه الحسن بن هانيء، غفر الله له وللأمين، ببيت من أجمل شعر المديح:

وإذا المطِيُّ بنا بلغن محمداً
فظهورُهن على الرّجال حرامُ

٨

يُقرُّ الجاحظ مبدأً في الحرب، أصبح من ركائز سياسة الدول في هذا العصر، وكان فيلسوف الحرب الألماني «كلوزفتْز» أخذه عنه بالحرف. يقول الجاحظ:

«ومن أخلاق الملوك الـمُكايدة في حروبها، ولذلك كان يقال إنه ينبغي للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخر حِيَله، فإن النفقة في كل شيء إنما هي من الأموال، والنفقة في الحروب إنما هي من الأنفس. فإن كان للحِيَل محمودُ عاقبة، فذلك بسعادة الملك، إذا خسر ماله وحقن دماء جيوشه. وإنْ أعْيتْ الحيل والمكائد، كانت المحاربة من وراء ذلك».

ويقولون في هذه الأيام أن الحرب هي سياسة الملاذ الأخير، أو سياسة الحد الأقصى: War is the policy of last resort. أليس

هذا ما عناه الجاحظ نصّاً حين قال «ينبغي للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخر حيَله؟».

كأنَّ الجاحظ كان يتوجه بحديثه إلى الخليفة، عبْر وزيره الفتح ابن خاقان، ويُطريه بوصفه إياه بـ «الملك السعيد». وعندي أن كتابه ليس أقل أهمية من كتاب «الأمير» لماكيافللي. ويزيد عليه أن الجاحظ سبق نظيره الإيطالي بقرون، وأن كتابه أفْكه روحاً وأخفّ وطأة.

يقول أبو عثمان رحمه الله، في عبارة لا تخلو من جرأة:

«وأيضاً فإن لنا أجْريْن. أما أحدهما، فلما نبّهنا عليها العامة من معرفة حق ملوكها. وأما الآخر، فلما يجب من حق الملوك علينا من تقويم كل مائل عنها، وردّ كل نافر إليها».

هذا كما ترى، مذهب طريف، فهو ليس ضدّ الملوك من حيث إنهم ملوك، ولكنه يقول إنه صوتهم المدافع عنهم لدى العامة، كما أنه صوت العامة وصوت الحق لدى الملوك. أو كما نقول بلغة هذه الأيام، إن دوره دور «رجل (الفكر)» الذي يكون جسراً بين «الشعب» وبين «السلطة».

وذاك لعمري أمر عسير. إلّا أن الجاحظ كان محظوظاً أنه وجد تأييداً وسنداً من وزير واسع الاطلاع، عميق الفكر مثل الفتح بن خاقان، وقد أخبروا أن الفتح بن خاقان، لم يكن يفوقه إلّا الجاحظ في إقباله على الكتب وشغفه إلى المعرفة، وأنه يكون في مجلس الخليفة، فإذا قام الخليفة عن المجلس ولو لفترة وجيزة، فإن الفتح

يُخرج من ثيابه كتاباً يقرأ فيه إلى أن يعود الخليفة.

ولا بد أن الجاحظ قصد أيضاً أن يمكّن لصديقه الوزير لدى مولاه، وحق له أن يفعل، فقد كان الرجل جديراً. يقول الجاحظ:

«وبعد فإن أكثر كلامنا في هذا الكتاب، إنما هو على مَن دون الملك الأعظم، إذ لم يكن في استطاعتنا أن نصف أخلاقه بل نعجز عن نهاية ما يجب له، لو رُمنا شرحنا... وليس لأخلاق الملك الأعظم نهاية تقوم في وهم، ولا يحيط بها فكر. وأنت تراها تتزيّد منذ أول مِلك ملَك الدنيا إلى هذه الغاية..».

هذا، كأنه المتنبي يُمالىء سيف الدولة. وكأنَّ أبا عثمان خجل من كثرة ما بالغ في إطراء الخليفة، فما لبث أن أضاف كالمعتذر:

«ولعل قائلاً يقول إذ رآنا قد حكينا في كتابنا هذا بعض أخلاق الملوك الماضين من آل ساسان وملوك العرب: قد ناقض واضع هذا الكتاب، إذ زعم أنه ليس لأخلاق الملك الأعظم نهاية ـ فيظلم في اللفظ ويعتدي في المقال. وأولئك الملوك هم عند ملوكنا، كالطبقة الوسطى عند النمط الأعلى. أنت تجد ذلك عياناً وتشهده بياناً..».

هذا، ويؤكد أبو تمام مبدأ مناقضاً لما ذهب إليه الجاحظ في قضية السياسة والحرب، وذلك في بيته الذائع في قصيدته المدوية في مدح المعتصم:

السيف أصدقُ أَنْباءً من الكتب
في حدّه الحدُّ بين الجدّ واللّعب

وقد ذهب بعضهم إلى أن المقصود بـ (الكتب) هو (الفكر) كما تقول رجل الفعل ورجل الفكر وربُّ السيف ورب القلم. وأغلب الظن أن أبا تمام لم يُرد إلّا الكتب التي يرسلها الملوك بعضهم إلى بعض في أمور السلم والحرب.

كان المعتصم حقاً ملكاً محارباً، يغزو أولاً ثم يفكر فيما بعد. والجاحظ رغم أنه يؤثر الدّفع بالحسنى إن أمكن، فإنه لا يُخفي إعجابه بالمعتصم ويصفه وصفاً يكاد ينُطّ من بين السطور:

«وكان المعتصم قلّما يمسُّ الطيب. وكان يذهب في ذلك إلى تقوية بدنه وإعانته على شدة البطش والأيد. وأما في أيام حروبه، فكان من دنا منه، وجد رائحة صدأ السلاح والحديد من جسمه».

كان خشناً جلْفاً إلى حدٍّ أن أهل بغداد ـ وقد كانت في ذلك الزمان مثل باريس اليوم ـ ضاقوا به وبفظاظة جُنده، فهجرهم وبنى عاصمة جديدة هي (سُرَّ من رأى). لم تلبث طويلاً حتى اندثرت، وقد رثاها ابن المعتز بأبيات بليغة:

قد أقفرت سُرَّ مَنْ رأى
فما لشيء دوامُ
فالنَّقض يُحمل منها
كأنّه الآجامُ
ماتت كما مات فيلٌ
تُسلُّ منه العظامُ

وقد أصبحت قصة فتح المعتصم لعمّورية أسطورة يُضرب بها

المثل في الإقدام والنجدة في تراث العرب، إلّا أنهم أخبروا أن المرأة التي صرخت «وامعتصماه!» لم تكن في عمُّورية، بل كانت في «زبطرة» على الحدود بين مُلْك الرّوم ومُلْك العرب. وكان أمبراطور الروم «تيوفيل» قد غزاها عام ١٣٨م فحرق وهدم وقتل وسبى. سمع المعتصم استغاثة المرأة العربية فهتف «لبيك لبيك». ويذكر بعض الرُّواة أنه كان ممسكاً بكأس فوضعها وهبَّ واقفاً من فوره، وسأل قواده، أي بلاد الروم أمنع وأحصن، فقالوا «عمورية»، وأن المسلمين لم يجرُؤوا على اقتحامها من قبل. فصبحها بجحافله ودكّها دكاً، واقتحم «أنقرة» في الطريق.

وكما قال الشاعر «ولو أن قومي أنطقتْني رماحُهم نطقْتُ» فإن هذه الوقْعة قد هزّت وجدان الشاعر العملاق حبيب بن أوْس الطائي، فأتى بالعجب العجاب:

رمى بك اللّه بُرجيْها فهدّمها
ولو رمى بك غيرُ اللّه لم يُصِبِ
أجبْتَه مُعْلِناً بالسّيف مُنْصلتاً
ولو أجبْتِ بغير السّيف لم تُجِبِ

إلى أن يقول:

خليفةَ الله جازى اللّه سعيَك عن
جُرثومة الدّين والإسلام والحسب
بَصُرْتَ بالرّاحة الكُبرى فلم ترها
تُنالُ إلّا على جسرٍ من التّعب

ثم جاء العبقريَّ أبو الطيب، فنصب الميزان القسط بين مذهب الجاحظ ومذهب أبي تمام:

ووضعُ النّدى في موضع السّيف بالعلا
مُضِرٌّ كوضع السَّيف في موضع النَّدى

٩

بلغ تكالب أوروبا على الاستعمار أوجهُ في القرن التاسع عشر. باستثناء دول إسكندنافيا التي استعمر بعضها بعضاً، لم تبق دولة أوروبية لم تحصل على مستعمرة أو أكثر. حتى هولندا. حتى البرتغال. ما عدا بلجيكا. لأجل ذلك كان ليوبولد الثاني ملك البلجيك يحسُّ بالغُبن ويريد أن يحصل على مستعمرة بأي ثمن.

وفي السابع من كانون الثاني/ يناير عام ١٨٧٦، أحسّ أن حلمه يمكن أن يتحقق. كانت صحيفة الـ «تايمز» اللندنية تصله بانتظام يوم صدورها بوسائل معقدة. وبينما كان يقرأ في عدد ذلك اليوم ـ بإمعان كعادته ـ جذبت اهتمامه رسالة بعث بها مراسل الصحيفة من (لُوانْدا) أنجولا، المستعمرة البرتغالية، يدل تاريخها أن المراسل بعث بها قبل سبعة أسابيع. فَحْوى الرسالة أن الملازم (كامرون) الرحّالة الإنجليزي قد وصل إلى ساحل أفريقيا الغربي، بعد رحلة عبر

القارة استغرقت ثلاث سنوات، وأنه لم يستطع العودة إلى إنجلترا بسبب مرضه ولكنه أرسل تقريراً عن رحلته ليُعرض نيابة عنه في اجتماع الجمعية الملكية الجغرافية في لندن.

بعد أربعة أيام، نشرت صحيفة الـ «تايمز» في مكان بارز، وقائع اجتماع الجمعية الجغرافية، وذكرت أن رئيس الجمعية (سير هنري رولنْسُن) وصف رحلة (كامرون) بأنها «أصعب رحلة قام بها أيٌّ من الرحالة المكتشفين في قلب القارة الأفريقية وأكثرها نجاحاً».

ثم توقف الملك ليوبولد طويلاً عند قول الملازم كامرون، كما جاء في الصحيفة:

«وسط أفريقيا بلاد رائعة في الغالب، ذات مناخ صحي، تُخفي ثروات خرافية. لقد حصلتُ على عينة من الفحم الحجري، وهو من النوع الممتاز، وتأكد لي وجود معادن أخرى بكميات كبيرة، مثل الذهب والنحاس والفضة. ولا شك عندي، أنه باستثمار رأس مال ليس كبيراً، يمكن خلق شبكة من أحسن طرق الملاحة الداخلية في العالم. في ثلاثين إلى ستة وثلاثين شهراً، سوف تبدأ هذه الشبكة تدرّ أرباحاً كبيرة، على أي شخص عنده الجرأة على الاستثمار».

أحسّ ليوبولد أن تلك الأرض البعيدة المجهولة، التي لا يعرف اسمها بعد، هي المستعمرة التي سوف يقدمها هدية إلى شعبه. بعد يومين فقط كتب إلى الجمعية الجغرافية يعرض عليهم المساهمة في عملية الاستكشاف نظير مائة ألف فرنك (أربعين ألف جنيه إسترليني) تُنفق على رحلات (كامرون).

ورث ليوبولد الثاني عرش البلجيك عام ١٨٦٥، خلفاً لأبيه، ليوبولد الأول. كانت أسرتهم، أسرة ألمانية فقيرة من صغار النبلاء، تربطها قرابة قريبة بالأسرة المالكة الإنجليزية، وأسرة «لوي فيليب» الفرنسية. وقد أراد الأب أن يدعم موقفه بأن تزوج الأميرة شارلوت ابنة الملك جورج الرابع ملك إنجلترا ووليّة عهده، على أمل أن ترث ذريّته عرش الإنجليز. ولكن الأميرة توفيت، واضطُرَّ ليوبولد الأول ـ كما عُرف فيما بعد ـ أن يرضى بعرش البلجيك.

لم يكن وضعاً مُغرياً، فقد كانت بلجيكا دولة لا يؤْبَه لها، محشورة بين دولتين قويتين في خصام مستمر، هما ألمانيا وفرنسا. وكان الشعب منقسماً إلى فريقين بينهما حزازات قديمة وعداوات لا تهدأ، الـ «فِلِمشْ» والـ «والون».

استقرّ رأي الملك، والحال كذلك، أنه لا بد من الحصول على مستعمرة لبلجيكا، مستعمرة في أي مكان، وبأي وسيلة. وقد قدّر أن ذلك سوف يعطي شعبه متنفساً لطاقاته، ويصرفه عن الاحتراب الداخلي، كما يعطي بلجيكا وزناً واحتراماً، ويدخلها «نادي» الدول الأوروبية المستعمرة.

إلّا أن وزراءه لم يكونوا متحمّسين للفكرة، خاصة رئيس وزرائه المتحرر، الذي كان يمقت فكرة الاستعمار من حيث المبدأ. كانوا يقولون له إن شعب بلجيكا أهل تجارة، والاستعمار تجارة خاسرة، خاصة في المناطق الاستوائية، وأن الدولة لا تملك المال الكافي الذي تتطلبه عمليات الاستيطان وفرض النفوذ والتنمية والاستعمار والاستثمار. يجيبهم بأنه مستعدّ للإنفاق من ماله الخاص، وكان قادراً بالفعل، فقد كان في طليعة أثرياء أوروبا، إذ ورث ثروة كبيرة

من أبويه، نمّاها وأضاف إليها بصفقات ذكيّة مثل شراء أسهم في قناة السويس.

أخذ الملك يتلفّت يميناً وشمالاً يبحث عن مستعمرة. عرض على الإسبان أن يستأجر منهم مستعمرتهم الفيليبين لقاء عشرة ملايين فرنك، ولكنهم رفضوا حتى مجرد النظر في عرضه، ذهب إلى البرتغاليين عارضاً الشراء.

«هل تبيعونني أنجولا؟ لا؟ إذاً موزمبيق. لا؟ إذاً جزيرة تيمور».

رفض البرتغاليون أن يبيعوه حتى جزيرة تيمور.

ماذا يفعل؟ إلى مَنْ يتّجه؟ مَنْ يا ترى عنده مستعمرة للبيع؟ آه! الإنجليز. غينيا الجديدة.

هؤلاء لهم مستعمرات كثيرة، ولن ينقص من إمبراطوريتهم كثيراً إذا باعوه غينيا الجديدة.

راقته الفكرة تماماً وتأكد من النجاح، فالأسرة الإنجليزية المالكة أقرباؤه، والإنجليز أصدقاؤه، وغينيا الجديدة لا تهمهم كثيراً إذ إنهم لم يهتموا بأن يثبتوا وجودهم فيها بشكل محسوس. وفي شهر تموز/ يوليو عام ١٨٧٥، استدعى السفير البريطاني في بركسل، وقال له بأسلوب حاسم، مثل رجال الأعمال:

«إسمع. دولتنا تحتاج إلى متنفس لطاقاتها المكبوتة. أبي كان يؤمن أن الحل الأمثل هو في الحصول على مستعمرة. ذلك سوف يمكننا من

تنمية مصالحنا التجارية، أيضاً نرفع الروح المعنوية للجيش، وننشىء أسطولاً تجارياً. ليس عندنا كما تعلم أسطول تجاري الآن. جاء الوقت كي تؤدي بلجيكا واجبها في المساهمة في العمل النبيل ـ المهمة العظيمة التي تقوم بها أوروبا ـ نشر الحضارة والتمدن بين الشعوب البدائية، مقتدية بإنجلترا بشكل متواضع طبعاً. وأنا يسعدني أن أُهدي إلى شعبي مستعمرة. أقدم له هدية في شكل مستعمرة. سوف أتكفّل بجميع النفقات من جيبي. المشكلة هي أين تكون المستعمرة. قرار صعب، فكّرت طويلاً في الأمر، وأعتقد أن غينيا الجديدة تفي بالغرض. نعم. غينيا الجديدة. إنها على الطريق الواسع، طريق المستقبل، بين أستراليا واليابان».

استقبل وزير الخارجية، (لورد دارْبي)، عرض الملك لشراء غينيا الجديدة من بريطانيا بدهشة بالغة، وقال:

«كيف بحق السماء يستطيع ليوبولد أن يوطِّن بلجيكيين مع أسرهم بين قوم متوحشين يأكلون لحوم البشر؟ نحن إلى الآن لم نجرؤ على ذلك».

بعد أيام جاء السفير البريطاني إلى ليوبولد برد الحكومة البريطانية، بأنها لا توافق على عرضه، لأن المستوطنين في أستراليا يعتبرون غينيا الجديدة تابعة لأستراليا.

لم يثبط ذلك من عزيمة الملك. قال لرئيس وزرائه:

«حالة السوق ليست مشجّعة. أظن من الحكمة ألّا أُلحّ في هذه الظروف. لا أحد يريد أن يبيع. لا الإسبان ولا البرتغاليون ولا

الهولنديون ولا الإنجليز. لا بأس. سوف أتحرى بهدوء. لعلّنا نجد شيئاً ما في أفريقيا».

١٠

منذ القرن الخامس عشر، والبرتغاليون يحوّمون حول أفريقيا، كما تحوّم النسور فوق جسد وعْلٍ جريح، وقع من الإعياء، يحاول أن ينهض فلا يستطيع. الذّهب بُغيتهم، خاصة الذهب. لا عجب، فقد كانت كنوز أفريقيا تُسيل لعاب الأوروبيين منذ أمد بعيد، يسمّونها «ألْدورادو» ـ أرض الكنوز الخرافية. وكان الذهب الأفريقي الذي يتسرب إلى (جنْوا) على البحر الادرياتكي، وبقية مدن البحر الأبيض المتوسط، يفتح شهيّتهم، ويُلهب خيالهم. ولكنهم لم يكونوا يعرفون من أين يجيء، وكيف يصل إليهم. وكانوا قد تسامعوا من قبل، أن السلطان موسى، سلطان مالي، قد مرّ بمدينة القاهرة في طريقه لأداء فريضة الحج، ومعه حاشية من خمسمائة مرافق، كل واحد منهم يحمل قضيباً من الذهب الخالص، زنتهُ أربعة أرطال، ليهديها إلى بيت الله الحرام. جُن جنونهم، وتساءلوا، من أين يجيء كل ذلك الذهب؟

وفي نحو عام ١٤٨٠، نجح البرتغاليون في أن يجدوا لهم موطىء قدم على ساحل أفريقيا الغربي، وبدأت سفنهم تشحن الذهب في مصب نهر السنغال وفي خليج غينيا. يصلهم من أماكن غامضة في وسط القارة، لا يعلمون أين. لم يستطيعوا النفاذ إلى قلب القارة، فأخذوا يضغطون جنوباً. وفي عام ١٤٩٧ وصل (فاسكو داغاما) إلى طرف القارة من ناحية الجنوب، فسمّوه (رأس الرجاء الصالح) The Cape of good Hope، وكان أحرى بهم أن يسموه (رأس الجشع الفادح) فلم يكن البرتغاليون يأملون في شيء غير الكنوز والثراء. والآن انفتح لهم طريق بحري إلى الهند وبقية آسيا، بديل عن الطريق البري الشاق.

في أثناء ذلك، كان الفرنسيون والإنجليز في سباق محموم، أيهم يفوز بقلب القارة. وكان الإنجليز يحسّون أن الفوز سوف يكون من نصيبهم، بسبب جهود مكتشفيهم، أمثال (لفنجستون) و(سبيك) و(غرانت) و(بيرتُن) وأخيراً الملازم (كامرون). وقد بدأ الرأي العام في بريطانيا يهتم بأفريقيا، حين أنشئت أول بعثة تبشيرية على سفينة على بحيرة (نياسا) مما أدخل عنصراً جديداً أسبغ ثوباً أخلاقياً على الشجع الاستعماري. أما الفرنسيون فقد ظلوا يتلقطون أنباء الرحّالة الإنجليز ويحاولون أن يجدوا منفذاً إلى قلب القارة من مستعمرتهم في (غامْبيا).

لعل السُّعار الأوروبي كان سيتجه إلى الأمريكتين، بعد أن وصلوا إليهما على أثر (كولمبس) في أواخر القرن الخامس عشر. ولكن التوسع في زراعة القطن وقصب السكر هناك، أضاف إلى سُعارهم في أفريقيا، سبباً جديداً. كانت تلك المزارع تحتاج إلى أيدٍ عاملة، ملايين الأيدي العاملة. وكانت أفريقيا، الوعل البري الجريح، لا

حول ولا قوة، لا تستطيع أن تدافع عن نفسها في مواجهة التكنولوجيا المتقدّمة ـ البوارج والمدافع والبارود.

هكذا نشأت تجارة الرقيق. كما كان الذهب يصل إلى موانىء الساحل الغربي، أصبح الرقيق يتدفّقون من وسط القارة، فيتمّ فرزهم وتصنيفهم مثل السلع التجارية، وشحنهم مكدّسين في السفن في ظروف مُخزية، إلى البرازيل وأمريكا وجزر الهند الغربية.

رحّلت أوروبا نحو عشرة ملايين آدمي في هذه التجارة البشعة. كانت أكبر عملية تهجير قسري في التاريخ. سوف يجيء وقت يحسّ فيه الضمير الأوروبي بوطأة الإحساس بالذنب. فيبحثون عن شعب آخر يحمّلونه وزر خطاياهم. ومَنْ تظنّ الشعب الغافل الذي يحمل أوزار الآخرين عن طيب خاطر؟

كل ذلك وبلجيكا بمَعْزل. كان ليوبولد الثاني يرى الكلاب الأوروبية تنهش في لحم أفريقيا، ويتلمّظ يريد عظماً أو مُزْقة من لحم. عنده رأس مال حاضر، يبلغ خمسة عشر مليون فرنك، يريد أن يحصل به على مستعمرة، ولا أحد يسخو بالبيع أو الإيجار. لا بد من الحصول على مستعمرة. كيف يفعل؟

خطرت له فكرة مُلهمة. يكسو الجشع رداء الحضارة والمثل العليا وخدمة العلْم. فكّر أن يعقد مؤتمراً كبيراً في بروكسل، يدعو إليه العلماء والرحّالة والمكتشفين. وفي الثاني عشر أيلول/ سبتمبر عام ١٨٧٦، افتتح الملك المؤتمر في القاعة الكبرى في القصر الملكي، في جو ساحر من الأبهة والفخامة، وأنغام الموسيقى وأضواء الشموع. كان ذلك بداية شرّ مستطير للكنغو البائس. مأساة لم تتم فصولها

بعد. حقاً التاريخ لا ينسى ولا يغفر. البذور الشريرة التي غرسها ليوبولد في تلك الليلة، أنبتت فيما بعد ـ كما كان حتماً أن يحدث ـ شجراً شوكه الندم، وثمره الحسرة.

خطب الملك في جمع العلماء والمكتشفين والرحالة والمغامرين والأفّاقين الذين شمّوا رائحة الثراء، ولمع في خيالهم بريق الذهب من قلب أفريقيا المُتعب. قال:

«... أنْ نفتح للحضارة الجزء الوحيد من كوكبنا الذي ظلّ مغلقاً دونها... أنْ نُضيء الظلام الكثيف الذي يخيّم على شعوب بأكملها... تلكم هي، إذا جاز لي التعبير، المغامرة النبيلة... الجهاد المقدّس الذي يليق بهذا العصر. وإنه يبدو لي أن بلجيكا مؤهلة لاجتماعنا هذا، بحكم موقعها المتوسط في أوروبا، وبحكم حيادها. هذا هو الذي شجّعني أن أدعوكم إلى داري المتواضعة في هذا الاجتماع الصغير الذي يشرّفني أن أفتتحه اليوم. ولا حاجة بي أن أؤكد لكم، أن دعوتي لكم إلى هذا الاجتماع، لا تخفي وراءها أية أغراض أنانية. أبداً أيها السادة. صحيح أن بلجيكا دولة صغيرة. ولكنها دولة سعيدة راضية بحظها. إن طموحي الوحيد هو أن أخدم شعبي وبلادي».

بين عشية وضحاها، تحوّل ليوبولد الثاني ملك البلجيك، من ملك مغمور لدولة لا يُؤْبه لها، إلى نجم يتألق في سماء أوروبا كلّها.

١١

كان المؤتمر ناجحاً بكل المقاييس، أرضى توقّعات الملك كلّها. ووجد أولئك العلماء والرحّالة والمكتشفون أنفسهم غرقى في محيط من العطف الملكي السامي، والبذخ والأضواء والسحر، إلى درجة دوّخت رؤوسهم وأعشت أبصارهم، فكتب العالِم الوقور «سير هنري رولنْسن» مكتشف طلاسم اللغة اليهروغليفية، كتب إلى زوجته في لندن بحماسة صبيّ يرى السرْك لأول مرة:

تصوري أنهم خصّصوا لي جناحاً فاخراً، جناحاً كاملاً لي أنا وحدي كل ما فيه أرجواني ومذهّب. اللون الأحمر يطغى على كل شيء حتى ورق التواليت».

وقال البارون (فون رِخْتْهوفن) رئيس الوفد الألماني:

«أدار الملك جلساتنا بلطف وتهذيب يفوقان الوصف. إنني لا أعرف نظيراً لكرم الضيافة والترف الذي عُوملنا به».

أجل، أحس ليوبولد بالرّضى. تحوّل بين يوم وليلة، من ملك عاطل الذكر لدولة لا وزن لها، إلى نجم يشعّ في سماء أوروبا، من بحر البلطيق إلى سواحل الأطلس وما وراءه، تهفو إليه قلوب سيدات الصالونات في «ماي فيز» في لندن والـ «فوبور سانْت أُنُري» في باريس. أصبح رمزاً لنور الحضارة الأوروبية، الذي سوف يجلو الغياهب في قلب «القارة المظلمة». أصبح بمثابة الاستجابة للدعاء الذي وجهه «لفنجستون» في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر عام ١٨٥٧:

«أتوسل إليكم أن تهتمّوا بأفريقيا. أعرف أنني سوف أقضي عما قريب، وينقطع خبري، في تلك الأرض التي انفتحت الآن. لا تدعوها تنغلق من جديد. سوف أعود إلى أفريقيا لأواصل الجهد كي أفتح طريقاً للتجارة وللدين المسيحي. فهل تواصلون أنتم العمل الذي بدأته؟».

وكأني بليوبولد قد هتف «لبّيك لبّيك». فقد كانت التجارة والمسيحية تتفقان تماماً مع مخططاته. تحت سحائب الكرم والبذخ والأبهة التي دوّخت كل أولئك العلماء والمكتشفين في بركسيل، كان الملك يعرف ما يريد. كتب إلى سفيره في لندن يقول:

«يجب ألّا أضيّع الفرصة للحصول على قطعة من هذه الكعكة الأفريقية المدهشة.

سارت الأمور على ما يرام، وانتهى المؤتمر إلى النتائج التي أراد له ليوبولد أن ينتهي إليها. وكان أهمها «إنشاء هيئة تسمى (الجمعية الدولية الأفريقية) تعمل على تنسيق أعمال الاستكشاف في أفريقيا، وتحارب تجارة الرقيق، وتنشر الديانة المسيحية». وطبعاً عُرضت رئاسة الجمعية على الملك، فتمنّع في القبول، ثم قبل بعد إلحاح!

ماذا بقي إذاً؟ بقي أن يحصل ليوبولد على رجل عليم بدروب أفريقيا يعينه على تحقيق هدفه ـ الحصول على مستعمرة. وكان الملك يظن أن «كامرون» هو ذلك الرجل، ولكنه اكتشف في رحلة سرّية قام بها إلى لندن متخفياً، أن (كامرون) كان يحاول أن يعرض خدماته على الحكومة البريطانية، وإقناعها ببسط نفوذها على الجزء الذي اكتشفه في وسط أفريقيا، يعني (الكنغو).

مَنْ هناك إذاً؟ ستانْلي، لمع الاسم في ذهن ليوبولد، وأحسّ بالنشوة. كلما تعمّق في التفكير، زادت قناعته أن «ستانلي» هو الرجل الذي يطلبه. ولكن أين هو؟ آخر ما سُمع عنه أنه في مكان ما وسط القارة يحاول أن يتبع مجرى نهر (لوا لابا) ـ النهر العظيم، كما سماه «لفنجستون»، ليتحقق هل هو نهر النيل أم نهر الكنغو.

تاريخ الاستكشاف في أفريقيا يموج بشخصيات كأنها من قصص روائية، وكان «هنري مورْتُن ستانلي» من أكثرها غرابة. كان طفلاً لقيطاً من أبوين من مقاطعة (ويلز)، فنشأ في ملجأ أيتام نشأة بائسة، كما روى هو نفسه فيما بعد. وفي سن السابعة عشرة هرب إلى أمريكا، وفي مدينة (نيو أورلينز) في الجنوب صادف رجلاً كريماً من أصل إنجليزي، يملك مزارع للقطن يسمى (هنري هوب ستانلي) فآواه وأعطاه اسمه، وأنفق على تعليمه.

عمل «ستانلي» مراسلاً لصحيفة «نيويورك هرالد» واستطاع أن يجد طريقه إلى أفريقيا مراسلاً للصحيفة الأمريكية بالإضافة إلى صحيفة الـ «ديلي تلغراف» الإنجليزية.

حين التقى بـ (لفنجستون) عام ١٨٧١، والرحّالة الشيخ يجهد أن يكتشف (النوافير) التي ذكر المؤرخ اليوناني «هيرودتس» أن نهر النيل ينبع منها، قال رجل لـ «لفنجستون» «هذا الشاب الأمريكي المتعجرف سوف يصنع مجده على حسابك».

فقال «لفنجستون»:

«إذا كان ذلك ما يريد فهنيئاً له. إنه أكثر مما أستطيع صنعه لنفسي».

بعد ذلك اللقاء بقليل كان «ستانلي» واحداً من ثمانية رجال أُعطوا شرف حمل نعش الرحّالة الشيخ إلى مثواه في «وستمنستر أبي». على حافة القبر آلى على نفسه أن يُكمل العمل الذي بدأه «لفنجستون»، أن يفتح قلب أفريقيا لنور (التجارة والمسيحية). وذلك تحديداً ما كان يسعى إليه ليوبولد الثاني ملك البلجيك.

١٢

في بلدة تُسمى «أوجيجي» على نهر «لُوالابا» عثر «ستانلي» على الرحالة القس «ديفيد لفنجستون» في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٨٧١. كان لقاءً درامياً طار ذكره في الآفاق. كان الرحال الشيخ، رغم المرض والإرهاق، يواصل السعي بتصميم رجل إسكتلندي ينتمي إلى المذهب المسيحي الكالْفيني، كي يجد منبع النيل. كان يظن أن نهر «لوالابا» هو نهر النيل، الذي سوف يصل بواسطته «نور» المسيحية والتجارة إلى «قلب أفريقيا المظلم». بعد أن يموت «لفنجستون» سوف يكتشف الملازم «كامرون» أن الرحالة العنيد، كان يلاحق سراباً، وأن نهر «لوالابا» ليس هو نهر النيل، بل نهر الكنغو، وأن طريق «الحضارة» الأوروبية، ليس من ناحية الشمال، ولكن من ناحية الغرب. وكان الأمران سيّين لدى الملك ليوبولد الثاني ملك البلجيك.

أحس «ستانلي» لأول وهلة، بأُلفة طاغية نحو ذلك الرجل العجيب. كان بحكم طفولته التعيسة يبحث عن أب. وجده من قبل في «نيو أورلينز» في «مستر هنري هوب ستانلي»، وها هي الأقدار قد قيّضت له الآن هذا الرجل المهذّب الرحيم القلب. كان رحيماً أكثر مما يجب، في نظر «ستانلي»، فقد كان يعامل خدمه الزنوج برقّة شديدة، ولا يقوى على عقابهم إذا أخطأوا. بعد موته، كتب «ستانلي» في مذكراته يقول:

«أسأل الله أن يختارني كي أتمّم ما بدأه في فتح أفريقيا لنور المسيحية الوهّاج. لكن أساليبي سوف تختلف عن أساليبه. كانت طريقه مليئة بالأخطاء، مع أن الرجل الشيخ نفسه كان مثل القديسين في طيبته وصبره وتضحيته. هذا العالم القاسي يحتاج إلى رجال أقوياء بوسعهم أن يتحكموا في أموره، أكثر من حاجته إلى رجال مُحبِّين».

كانا مختلفين أشدّ الاختلاف، فقد ترك «ستانلي» وراءه، آثاراً من الجثث والدماء، وإذْ مات «لفنجستون» وحيداً، إلّا من أتباعه الزنوج الأوفياء، في خيمة في الأدغال، مضى «ستانلي» ليصبح نابه الذكر، يقابل الملكة فكتوريا(*) وينال لقب «سير» ويقضي أيامه الأخيرة سيداً على مزرعة واسعة في الريف الإنجليزي. ولعل الكاتب العبقري «جوزف كُنْراد» كان يفكر في «ستانلي» حين كتب روايته الشهيرة عن الكنغو، «قلب الظلام».

ولد «ديفد لفنجستون» في ١٩ آذار/ مارس عام ١٨١٣ في بلدة «بلانتير» في اسكتلندة، أحد سبعة أطفال، في عائلة فقيرة متدينة، تنتمي إلى المذهب الكالْفيني المتزمّت. وقد اضطره فقر أسرته أن

يعمل وهو بعد صبي في محلج للقطن، فكان يعمل ويدرس. وفي عام ١٨٣٤ قرأ إعلاناً في الصحف عن حاجة (جمعية الكنائس البريطانية) إلى مبشّرين أطباء للعمل في الصين، فالتحق بجامعة «قلاشقو»، حيث درس، وهو ما يزال يعمل، اللغة اليونانية واللاهوت والطب. وفي عام ١٨٣٨، قُبل في جمعية لندن التبشيرية، ولكنه لم يستطع السفر إلى الصين، وأقنعه أحد المبشرين في أفريقيا، رجل يُسمى «موفات»، أن يذهب إلى أفريقيا. سوف يتزوج «لفنجستون» ابنة «موفات» هذا فيما بعد.

في ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٨٤٠ رُسمَ كاهناً في الكنيسة، وسافر إلى مدينة «كيب تاون» في جنوب أفريقيا. كانت تلك بداية حياته الاستكشافية الحافلة. اتجه شمالاً فقطع صحراء (كالاهاري) إلى أن وصل في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٨٥٥ إلى نهر (الزامبيزي). وقد قُدر له أن يكون أول من أسمى الشلالات «شلالات فكتوريا».

كانت أنباء رحلاته وجهوده التبشيرية تتسرَّب إلى إنجلترا، بطريقة أضفت عليه رونقاً من الجاذبية والسّحر. ولما عاد إليها عام ١٨٥٦، استُقبل استقبال الأبطال، ووجد حفاوة عظيمة من المجتمع بمختلف طبقاته. وعزّز شهرته حين نشر كتابه «رحلات مبشر وبحوثه في جنوب أفريقيا». لقي الكتاب رواجاً لم يحدث لكتاب من نوعه من قبل، وبيعت منه سبعون ألف نسخة في فترة وجيزة.

وهكذا حين لقيه «ستانلي» في (أوجيجي) لم يكن «لفنجستون» في حاجة إلى الشهرة. بل الثابت أن «ستانلي» هو الذي أقام شهرته على كتفي الرحالة الشيخ، وقد اتخذ لذلك أساليب خشنة أغضبت

كثيرين من محبي «لفنجستون» وبعضهم تشكك في أن يكون قد قابله أصلاً.

أعطاه المؤن والمعدات التي أرسلها له أصدقاؤه في إنجلترا، وصحبه طيلة أربعة أشهر في رحلاته حول بحيرة (تانقانيكا). عاد «ستانلي» إلى إنجلترا ونشر كتابه (كيف وجدت لفنجستون) الذي أحدث دوياً، وجلب للكاتب شهرة ومالاً.

أما «لفنجستون» فقد واصل بحثه عن منبع النيل، كأنه يلاحق طيفاً سحرياً. في ٣٠ نيسان/ أبريل عام ١٨٧٣، حطّ رحاله في قرية صغيرة على نهر (موليلامو). كان قد بلغ منه الإعياء مبلغاً، وهدّه النزيف الداخلي الذي كان يعاني منه. ليس معه غير أتباعه الأوفياء من الأفريقيين، (سوزي) و(شوما) و(جيكوب وينْرايتْ).

في صباح أول نيسان/ أبريل، وجدوه راكعاً عند سريره في الخيمة كأنما يصلّي. تأكدوا أنه قد مات. بعد ذلك قام هؤلاء الثلاثة بمغامرة ألهبت خيال الشعب البريطاني، وكانت سبباً مهمّاً في أن تبسط الحكومة البريطانية نفوذها على منطقة البحيرات في أفريقيا. قرروا أن يعيدوا الجثمان إلى إنجلترا.

شقوا الصدر، وأخرجوا منه القلب، ودفنوه تحت شجرة، وأقاموا شاهداً، عليه الاسم وتاريخ الوفاة. هذا العمل سوف يكون له مغزى رمزي عظيم فيما بعد. حنطوا الجثمان بطريقة بدائية وجفّفوه في الشمس، وحملوه في رحلة طويلة شاقة إلى زنجبار. كانوا يسهرون على حراسته بالليل حتى لا تخطفه الضباع. من ثمة حُمل على سفينة إلى لندن، يصحبه الزنجي المخلص (جيكوب وينْرايتْ).

جاشت عواطف الإنجليز من التأثر، واختاروا لأجل ذلك (جيكوب وينرايت)، ليكون واحداً من الثمانية الذين حملوا نعش الرحّالة إلى مثواه في (وستمنستر أبي)، حيث يدفنون عظماء رجالهم. فيما بعد، دعوا الخادمين الآخريْن (سوزي) و(شوما) إلى لندن، وغمروهما بالحفاوة والتكريم.

قبل ذلك، شاءت الصدف أن يصل الجثمان في الطريق إلى زنجبار، إلى بلدة تسمى (تابورا). ثمة وجدوا الملازم (كامرون). عجب أشد العجب لما فعله أولئك الثلاثة، ونصحهم أن يدفنوا «لفنجستون» حيث هو، ولكنهم أصرّوا على المضي قُدماً. أخذ منهم بعض معدات «لفنجستون» وواصل رحلته غرباً. سوف يصل بعد نحو عامين إلى ساحل (أنجولا) ويكون أول رحالة أوروبي يعبر القارة من الشرق إلى الغرب. لم يجد مصب نهر (لُوالابا) ولكنه تأكد أن «لفنجستون» كان مخطئاً، وأن الـ (لوالابا) ما هو إلّا نهر الكنغو. سوف تنشر صحيفة الـ «تايمز» أخبار هذه الرحالة، فيقرؤها ليوبولد الثاني ملك البلجيك في قصره في بركسل، فتخطر في ذهنه الثلجي أفكارٌ أبعد ما تكون عن المسيحية وخدمة العلْم.

(*) ويخدم مخططات ليوبولد، وينال لقب سير.. إلخ.

١٣

سوف يصل (ستانلي) إلى مصب نهر الكنغو، ويثبت بما لا يترك أدنى شك، أن (النهر العظيم) الذي ظنه (لفنجستون) نهر النيل، ليس غير نهر الكنغو. ولكنه لن يجد حلاوة الانتصار. حين مات (فرانك بوكُكْ) آخر مرافقيه من الأوروبيين، كتب في مذكراته يقول:

«آه يا صديقي فرانك. إنك رجل محظوظ. ارتحت من هذه الفوضى الفظيعة. نجوت من الوحل الذي غرقت أنا فيه إلى أذنيّ».

إن كان في هذه الكلمات إحساس بتوبيخ الضمير فلا جرم، فقد ارتكب (ستانلي) كثيراً من الآثام للوصول إلى غايته. وكأنه تنبأ بما سوف يحدث في المستقبل. سوف يغرق كثيرون بعده في «وحل» الكنغو. سوف يروح فيه (داج همرشولد) الرجل السويدي المتحضر

الذي لم تكن له يد في كل ما حدث. سوف تشبّ حروب يُقتل فيها آلاف الناس، وتزهق روح (باتريس لومُمبا) التعيس. وهي مأساة من مآسي جشع الإنسان لم تكتمل فصولها بعد.

في الخامس من آب/ أغسطس عام ١٨٧٧، بعد نحو عام من انقطاع أخبار (ستانلي) أوصل أربعة سواحليين رسالة بالإنجليزية، إلى بلدة صغيرة عند مصب نهر الكنغو تدعى (بوما) جعلها الأوروبيون قاعدة تجارية. كانوا خليطاً من الإنجليز والبرتغاليين والإسبان والهولنديين. كانت من (ستانلي). قرأها تاجر برتغالي اسمه «داموتا فيجيا». تقول:

«إلى أي رجل كريم يتحدث اللغة الإنجليزية في (أمبوما).

سيدي العزيز.
لقد وصلت إلى هذا المكان قادماً من زنجبار وفي صحبتي مائة وخمسة عشر إنساناً، رجالاً ونساء وأطفالاً. إننا لا نستطيع أن نشتري شيئاً من الأهالي، الذين يرفضون ما نقدمه لهم من الثياب والخرز ويجدونه مدعاة للضحك والسخرية. لا يمكن شراء الطعام في هذه البلاد إلّا في أيام الأسواق، ونحن نكاد نهلك من الجوع ولا نقوى على الانتظار. لا أعرف من أنت، وقد سمعت بوجود رجل إنجليزي في (أمبوما). لكنك مسيحي وجنتلمان، لذلك فإنني أتوسل إليك ألا تصمّ أذنيك عن ندائي. ضروري أن يصلنا المدد في غضون يومين وإلّا فإننا هالكون لا محالة».

أرسل له (فيجا) المدد المطلوب، وفي الثامن من آب/ أغسطس وصل (ستانلي) إلى (بوما) - التي سماها في رسالته (أمبوما) - وصل مع

من بقي من أتباعه في حالة لا توصف من الجهد والإعياء. كان قد مضى على بدء رحلته من زنجبار قرابة ثلاثة أعوام، وقطع أكثر من سبعة آلاف ميل. حين بدأ كان معه مئتان وخمسون، وحين وصل إلى (بوما) كان قد بقي منهم أقل من النصف. بعضهم هرب منه في الطريق، وبعضهم أهلكه المرض، وبعضهم قتل في المعارك التي خاضها.

أجهش (ستانلي) بالبكاء، بينما أخذ أتباعه يغنّون غناءهم الأفريقي عند النصر في الحرب، بأصوات ضعيفة متعبة. سوف يحزن أكثر، فما يزال القدر يخبّىء له مزيداً من الألم.

حين عاد إلى زنجبار، وجد رسالة جرحت قلبه جرحاً عميقاً، من خطيبته (ألسون بايكْ). كانت فتاة أمريكية في السابعة عشرة، ابنة ثري يهودي من (سنْسناتي). تعاهدا على الزواج ووقّعا ميثاقاً بذلك يقول:

«نقسم على أن نظل وفيّين أحدنا للآخر، وأن نتزوج حالما يعود هنري مورتن ستانلي من رحلاته في أفريقيا».

كان يسمّيها «الحلم والملاذ والأمل»، ولكنها لم تستطع الانتظار، فتزوجت رجلاً مليونيراً من (أوهايو).

سمى قاربه (ليدي أليسون) على اسمها. كان قارباً من عدة أجزاء، تُفك ويعاد تركيبها، غرق في ما بعد في مياه نهر (لُوالابا). وكان يحمل صورتها في جيب (جاكتته) الداخلي قريباً من قلبه.

التقى أثناء طوافه حول بحيرة فكتوريا بالكاباكا (متْسا) ملك الـ (بوغاندا). وجده يميل إلى اعتناق الإسلام، فأغراه بالدخول في المسيحية، ووجه نداء عبر صحيفتي الـ (ديلي تلغراف) والـ (نيويورك هرالد) بإرسال مبشرين إلى (بوغاندا). سوف يتدفقون وشيكاً على شواطىء بحيرة فكتوريا، وفي أقل من عشرين عاماً سوف تصبح يوغاندا بأكملها مستعمرة بريطانية.

خرج (ستانلي) من بلاط ملك الـ (بوغاندا) سعيداً مرتاح الضمير، فقد أحس أنه حقق هدفاً من أهداف (لفنجستون). ولكن يديْه سرعان ما تلطّختا بالدماء، وكانت وصمة لاحقتْه طول حياته.

وصل إلى جزيرة في بحيرة فكتوريا، تسمى (بمْبيري). طلب من أهلها أن يبيعوه الطعام والمؤونة، فرفضوا. شنّ عليهم الحرب فقتل منهم أربعة عشر. لم يكتف بذلك، بل عاد إليهم في اليوم التالي «كي يلقنهم درساً»، فأخذهم بغتة، وغمرهم بنيران بنادقه. كانت مذبحة قتل فيها أكثر من مائة إنسان. كتب في مذكرته مزهواً بما حققه من (نصر):

«يا له من نصر عظيم! سارت قواربنا جذْلى بحذاء شاطىء البحيرة. سبعة وثلاثون قارباً. كانت المجاذيف تضرب الماء على دقات الطبول وأنغام الأبواق، والأعلام الإنجليزية والأمريكية والزنجبارية ترفرف في الهواء. كان منظراً منعشاً بحق».

كانت رحلته بتمويل من مصادر إنجليزية ـ أمريكية، وقد حق للأعلام الإنجليزية والأمريكية أن ترفرف في الهواء. أما العلم الأحمر القاني، علم سلطان زنجبار، فكان كما تنثر الرماد للريح. لقد

استعان (ستانلي) بالزنجباريين لأنهم كانوا أدرى بتلك الدروب. سوف يلتقي عما قريب بالعربي الأسطورة، حامد بن محمد المعروف بـ (تبوُّتِبْ)، الرجل الذي حمّلوه أوزاراً في تجارة الرقيق، بعضها صحيح وأغلبها محض افتراء. كذلك فعلوا مع العربي السوداني الزبير (باشا) ودْ رحْمة، وولديه رابح وسليمان. وهيٍ من الأوزار التي يحملها العرب إلى اليوم ـ عن طيب خاطر ـ بدلاً من الجُناة الأصليين.

حين عاد (ستانلي) إلى لندن في كانون الثاني/ يناير عام ١٨٧٨، أستُقبل استقبالاً محيّراً. اعتبر كثيرون اكتشافه لنهر الكنغو أعظم اكتشاف في أفريقيا، ووجد ترحاباً على نطاق واسع. وفي المقابل استقبله كثيرون بفتور واضح. وقد حزّ في نفسه أن بعض المقاعد كانت شاغرة في قاعة (سانت جيمز)، حيث ألقى محاضرة عن رحلاته لأعضاء الجمعية الجغرافية الملكية.

أسوأ من ذلك أن الحكومة لم تتحمّس لاقتراحه أن تستعمر بريطانيا حوض نهر الكنغو. وكتب في مفكرته:

«لقد عجزت عن فهم هؤلاء الإنجليز، إما أنهم يظنّون أنني أعمل لمصلحتي الخاصة، أو أنهم يعتبرونني كاذباً.. كان جزائي أنهم يصفونني بأنني لست أكثر من مغامر يبحث عن الثراء... ونظير

إغاثتي لـ (لفنجستون) أسموني محتالاً. وحين أحاول تحريك عزائمهم للعمل يسخرون مني ويقولون أنني غِرٌ لا أفهم أمور المال والتجارة».

كان الإنجليز بالفعل في شغل عن الكنغو في ذلك الوقت. كانت الحكومة منصرفة إلى أمور أخرى، مثل أحداث البلدان وديون الخديوي في مصر. وكان عدد كبير من السياسيين ورجال المال غير متحمّسين للدخول في مغامرات استعمارية جديدة. كانوا مثل رئيس وزراء ليوبولد، يقدّرون أن إقامة مستعمرة في الكنغو، تحتاج إلى رأسمال كبير، لن يدر ربحاً إلّا بعد زمن طويل. حتى رجال الكنيسة لم يكونوا متحمّسين. كانوا منصرفين إلى فتح إرساليات في يوغندا ونياسالاند.

كل ذلك كان يثلج صدر ليوبولد. كان سفيره في لندن يرصد تحركات الرياح ويرسل إليه الأخبار أولاً بأول فتنزل على قلبه برداً وسلاماً. فلينتظره، ولكن يجب ألّا ينتظر طويلاً. صحيح أن الإنجليز ليسوا متحمّسين لاستعمار الكنغو اليوم، ولكن مَن يضمن أن شهيّتهم لن تنفتح غداً؟ هؤلاء القوم الماكرون، إذا أرادوا شيئاً حصلوا عليه! فلينصّب الشراك لـ (ستانلي) وينتظر.

أما (ستانلي) فإنه إزاء صدود الإنجليز وسخريتهم، فقد ندم أنه لم يستجب من قبل لدعوة الملك. أول ما رست سفينته في ميناء (مرسيليا) في الطريق إلى لندن، وجد في انتظاره دعوة من ليوبولد لزيارته في بركسل. كان (ستانلي) يعلم أن الملك لن يتحدث معه عن أنوع النباتات والطيور في غابات الكنغو، فضرب عنها صفحاً. سوف ينيخ آماله وأحلامه عند قوم أجدر بها وأقدر على تحقيقها.

وهكذا حين أعاد ليوبولد الكرّة في شهر حزيران/ يونيو عام ١٩٧٨، سارع (ستانلي) إلى تلبية الدعوة. وصل إلى بركسل في الحادي عشر من حزيران/ يونيو، فاستضافه الملك في قصره وأسبغ عليه ألواناً من بذخ الضيافة أدارت رأسه، كما حدث من قبل مع أولئك العلماء الأجلّاء. لكنه لم يفاتحه في موضوع الكنغو. تركه أياماً يتقلب في ذلك الترف ولا يقول له شيئاً.

عرف (ستانلي) مقاصد الملك فيما بعد على مستوى أدنى من مستوى صاحب الجلالة. في باريس في شهر آب/ أغسطس افتتح عدد من أتباع الملك المفاوضات مع (ستانلي) في موضوع الكنغو. كانت مفاوضات دقيقة مفصّلة عن الأسعار والتكاليف والوسائل والسُّبُل.

إلّا أن (ستانلي) لم يكن أقل مراوغة من الملك. لم يلتزم لهم بشيء. عاد إلى لندن وحاول من جديد أن يُذكي حماسة الإنجليز على استعمار الكنغو. ولا من مجيب. ولم يكن يعلم أن صورته عند الإنجليز قد ساءت تماماً، فقد أرسل القنصل البريطاني في زنجبار تقريراً سرياً إلى وزارة الخارجية وجّه فيه اتهامات دامغة لـ (ستانلي).

كان رجلاً يدعى (دكتور جون كيرك)، وقد ثارت العداوة بينه وبين (ستانلي) لأن هذا اتهمه على الملأ في لندن بأنه تقاعس عن نجدة (لفنجستون). كال له (دكتور جون كيرك) الصاع صاعين، فاتهمه في التقرير بأنه اتخذ لنفسه محظية زنجية. كان ذلك أفظع ما يمكن أن يُتّهم به رجل (أبيض) في ذلك الزمان. لم يكتف بذلك بل اتهمه بالقتل والنهب والاتجار في الرقيق.

كانت وزارة الخارجية بلا شك مثقلة بالعُنجهية الطبقية الإنجليزية، فسارعت إلى تصديق (دكتور كيرك). أوَليس إنجليزياً؟ ومن هذا الـ (ستانلي)؟ أليس من ويلز؟ أليس أمريكياً؟ ألم يكن لقيطاً نشأ في ملجأ أيتام؟

إذاً لا مفرّ من ليوبولد الثاني ملك البلجيك. في خريف عام ١٨٧٨ قرر (ستانلي) أن يضع نفسه تحت تصرف الملك، ويرتبط معه بعقد عمل لمدة خمس سنوات.

ماذا تطلب مني يا صاحب الجلالة؟ مشاريع بسيطة... مشاريع علميّة وإنسانيّة. ثلاثة مستشفيات.. بعض محطات للبحوث.. دراسة خطة للمواصلات النهرية تربط أعلى نهر الكنغو بأسفله. هذا كل ما في الأمر... إنما عليك بمراعاة السرّية التامة... لا تقل شيئاً لدزرائيلي.. سوف يتم كل هذا بإشراف الاتحاد الأفريقي الدولي.

إلّا أن (ستانلي) لم يكن ساذجاً. كتب في مفكّرته:

«هذا الملك سياسي داهية. إنه ذكي جداً! ولكنني لم أجلس معه كل هذه الساعات دون أن أعرف حقيقة نواياه... إنه يريد تحت غطاء (الاتحاد الأفريقي) أن يجعل من حوض الكنغو مستعمرة بلجيكية».

١٥

طغى حبّ المعرفة لديَّ على الكُره، واستيقظ عندي الحسّ الروائي، فأصبحت أنظر إلى «مستر سين» كأنه شخص في رواية. أراقبه يصول ويجول، ويحرُّ ويبرد، ويُرغي ويُزبد ـ كان حقيقة يُرْغي ويُزبِد ـ وأتعجّب، وأقول لنفسي «ما الذي جعل هذا الرجل هكذا؟ ما الذي حدث له في حياته جعله بهذه التعاسة؟» ويا للغرابة، أصبحت أحسُّ تجاهه إحساساً لا يبعد عن الرّثاء.

مرة طلب منه المدير العام، دون سابق إنذار، أن يحضر فوراً ليعرض قضية في المجلس التنفيذي. هكذا كان أحمد مختار أمبو، يعامل مساعديه الأوروبيين والأمريكان خاصة، بشدة تقرب من الشراسة ـ من قبيل الدفاع عن النفس، فقد لاقى منهم ما لاقى.

طلب مني (مستر سين) أن أصحبه، فقد كانت القضية تتصل

بعملي. دخلت معه المصعد، وكان بادي الاضطراب، محمرّ الوجه صدره يعلو ويهبط، يحمل حقيبتين منتفختيْن بالأوراق، واحدة باليمين وواحدة باليسار. وكان علينا أن نسير على الأقدام مسافة، من حيث نحن إلى مكان الاجتماع في المبنى الرئيسي.

عطفتُ لحاله، وقلت له:

«تسمح أحمل عنك إحدى الحقيبتين؟».

نظر إليّ متعجباً، وتردّد قليلاً ثم أعطاني الحقيبة.

مشى يهرول، وأنا أسارع الخطى لألحق به، وأسمع صوت شهيقه وزفيره. كان قد جاوز الستين. دخلنا مبنى «فونتنوا» وعدّيْنا فناءه الواسع وقاعاته المتعددة ودهاليزه الطويلة، حتى وصلنا إلى قاعة المجلس التنفيذي. أعشت الأضواء عيني وهلة، ثم جوّلْتُ نظري في الحاضرين. رأيت وجوهاً أعرفها. منهم الرجل الكريم عبد العزيز حسين عضو المجلس عن دولة الكويت. ابتسمت له وابتسم لي بطريقته الودودة دائماً.

كان المدير العام، أحمد مختار أمبو متصدراً المائدة المستديرة، متحفزاً مستأسداً، ممسكاً بمجامع المكان. نظر إلينا ونحن ندخل. كنت أقابله لماماً في المناسبات، لا يكاد يعرفني. فيما بعد سافرنا معاً وحججنا معاً، وأعجبت به وصرنا صديقين، وأصبحت أدعو صراحة لإعادة انتخابه، وهو أمر لم يحبّبْني إلى قلوب المعسكر المناوىء وهو معسكر الغالبين.

رشق المدير العام «مستر سين» بنظرة تخلو من أي ودّ، ولم يمهله حتى يستقر في مقعده، بل قال له فوراً «هيّا».

أحسست بعطف شديد على صاحبي. هذا موقف ليس سهلاً. المجلس التنفيذي هو أعلى سلطة في المنظمة. يصنع القرارات ويرسم السياسات ويأتمر المدير العام والسكرتارية بأمره. ماذا يفعل «مستر سين» المسكين، وقد جاء يهرول حتى انقطع نفسه؟

تعلّقت به الأبصار وساد الصمت. وضع الحقائب على الأرض بجواره. لم يفتحها ولم يأخذ منها أي ورقة يستعين بها. أخذ يتحدث ارتجالاً. كان صوته هادئاً محايداً. تحدّث نحو ربع الساعة، فعرض الموضوع عرضاً بيّناً مقنعاً. وحين فرغ من حديثه أقرَّ المجلس التوصية المقدّمة دون أي اعتراض.

عدنا أدراجنا نمشي على مهل، وإن كان «مستر سين» حتى في الظروف العادية، يمشي على عجل، كأنه يطلب شيئاً أو يهرب من شيء، نظرت إليه برهة. ربعة القامة أقرب إلى القصر. متجمعاً على ذاته آخذاً نفسه بالشدة. يرى الأمر جلَلاً، ولا يميّز أنه ما من أمر يستحق كل هذا العناء. يخاف الشيخوخة، واضحٌ ذلك من مبالغته بالعناية بثيابه ومظهره. يُرْعبه الموت، لا بد. حين يجيئه الموت، فلن يكون مستعداً له. استبقاه «أمبو» بعد سن الستين لحاجة في نفس يعقوب.

عرضت أن أحمل عنه إحدى الحقيبتين، كما فعلت من قبل. رفض وألححت فرفض بإصرار أدهشني. سبحان الله. كأنه لا يأمنني على أوراقه، فكيف استأمنني عليها ونحن رائحان؟ قلتُ لعلّ تلك

التجربة الإنسانية الفريدة التي ربطت بيننا وهلةً ـ رجلان يهرولان، كلٌّ منهما يحمل حقيبة مملوءة بأوراق لا قيمة لها في موازين الحياة والموت ـ قلتُ لعلها تمتد، فأنظر إلى (مستر سين) نظرة جديدة.

أبداً. عاد صاحبي سيرته الأولى. أول ما دخلنا مبنى «ميوليس» حيث هو مساعد للمدير العام، اهتزّ وربا، وسرى في عينيه البريق، وفي وجهه الدماء. لم يتركني استمرىء إحساس العطف الذي أحسست به تجاهه، وهو يركض كأنه تلميذ تأخر عن المدرسة. متى أتعلّم ألّا أشفق على أُناس هم في واقع الأمر، أقدر مني وأكثر حيلة على تقلُّبات العيش؟ وكنت أريد أن أسأله: لماذا حمل كل تلك الأوراق وهو لم يستفدْ منها شيئاً؟

قد لا يصدّق الإنسان، أن أهم موظف في منظمات الأمم المتحدة، بعد الأمين العام، كان إلى عهد قريب صومالياً، هو السيد عبد الرحمن فرح. رجلٌ مؤهّل كفء بجميع المقاييس، يصلح أن يكون رئيساً للوزارة أو رئيساً للدولة.

جلسنا نتحدث في الاستراحة، أثناء انعقاد مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية في الرياض. قلت له:

أليس عجيباً أن يوجد صوماليون أمثالك، ويكون الصومال بهذه التعاسة؟».

نظر إليّ مبتسماً، وكنت أعرف الإجابة عن سؤالي، فالصومال مثل بلاد كثيرة في العالم الثالث، وهو أسوأ من السودان مثلاً، فقط من

حيث درجة السوء. سألني أسئلة فاحصة واستمع إليَّ بدهشة أحياناً وبحزن أحياناً. كان بحكم منصبه في سكرتارية الأمم المتحدة في نيويورك، يعرف حقيقة الوضع في الصومال، ورغم ذلك فقد كان يبدو على وجهه أحياناً أنه لم يكن يتصور أن الحال قد وصل إلى ما وصل إليه.

كنت أحسّ بالحزن كلما زرت الصومال، ولكنني أيضاً كنت أحسّ ببعض الارتياح ـ إنني أجد بلداً أسوأ حالاً من السودان. كنّا تلك الأيام أواخر عهد النميري، وكان قد ضلّ الطريق وأفلس تماماً من أية أفكار نافعة. ولم يعدم من زيّنوا له، وحسّنوا له سبل الخراب، ثم تنكّروا له، وبعضهم ما يزال يخرّب إلى اليوم.

لكن النميري على الأقل بدأ بداية طيّبة، وأخذ براحاً من الوقت، فقد كان في السودان أشياء كثيرة صالحة حصلت على مدى سنوات، أشياء كثيرة تحتاج إلى جهد ووقت لإفسادها. أما في الصومال المسكين، فقد بدأ زياد بري عهده (الثوري) وهو خالي الوفاض كلية، مثل رجل يفتح شركة وليس في يديه رأس مال.

تزور مقديشو، وما كان أصعب الوصول إلى مقديشو، فلا تجد شيئاً. لا تجد دولة ولا حكومة. ولا توجد حتى أدنى مظاهر العهود الثورية. على الأقل في الخرطوم، عملوا بعض الأشياء، وغيّروا بعض الأسماء، وبنوا التذكارات والأنصاب، وهدّموا كثيراً، وأصلحوا قليلاً. الشعارات في الشوارع والصحف والإذاعة والتلفزيون تخبرك بأن هذه (ثورة) ولك أن تصدق أو تكذّب.

أما هنا في مقديشو، فلا شيء. صور (الزعيم القائد) قديمة باهتة ولا

تكاد تراها لقلّتها. الشعارات بائسة مثل صرخات مكتومة، مثل محاولات إنسان أبكم أن يفصح عن نفسه. لا توجد نُصب ولا تماثيل ولا أيٌّ من مظاهر الأبهة التي تجيء عادة مع هذه النظم (الثورية). هذه ثورة نسيج وحدها بحق، فلا أظن أن التاريخ على طول امتداده، قد شهد ثورة قامت وعاشت بمثل تلك اللامبالاة.

كانت مدينة مقديشو كما رأيتها تلك الأيام، شاهداً بليغاً على سخرية أفريقيا بالحلم الاستعماري الأوروبي. أخذتْ (موسوليني) بكبريائه وصلفه، وجرّدته من ثيابه العسكرية ونياشينه، وحوّلته إلى متسول يقف على باب الكاتدرائية الضخمة التي أقامها الإيطاليون وسط المدينة. ويا له من حلم مجنون. كأنهم أرادوا أن يجعلوها رمزاً أبدياً لإشعاع (الحضارة) الأوروبية.

وقفت أنظر إليها في صباح يوم أحد، أستمع إلى أجراسها تدقّ دقات مُتعبة، تأتي كأنما من بعيد، وكأنها صرخات (حضارة) تغرق. بناء ينهار، بُهتت ألوانه وتساقطت حجارته، وتشققت نوافذه الملوّنة، ودخلت يحدوني حب الاستطلاع فوجدت رجالاً ونساء طاعنين في السن، لا يزيدون عن العشرة، يتلون صلوات باللغة اللاتينية! لا تميّز من وجوههم هل هم إيطاليون أم إثيوبيون أم صوماليون، أم مزيج من كل هؤلاء. هذه الوجوه مثل الأبنية، مثل الشوارع، مثل شعارات الثورة، ذاب بعضها في بعض فكوّنت خليطاً لا يُفصح عن شيء.

مطار مقديشو، كأنهم غيّروا رأيهم فجأة ونفضوا أيديهم. تركوه، لا هو ناقص فيتمّ، ولا تامّ فينقص. الشوارع كأنها أطلال شوارع لمدينة مهجورة من عهد غابر. الأشجار قليلة. لعلّهم زرعوا أشجاراً ذات

يوم، ثم أهملوا أن يسقوها فذبُلت وماتت.

وهذا النُّزل حيث أقيم، لا بد أنه أخذ يتداعى أول ما فرغوا من بنائه. جديد وقديم في الوقت نفسه. رائحة الطلاء جديدة، ولكن الحيطان مشققة مخدّشة. قماش الستائر ليس قديماً ولكنه ممزّق مهلهل. مكيّفات الهواء كالجديدة ولكنها لا تعمل.

كان الانهيار مكتملاً وفظيعاً ـ وهل أقول رائعاً؟ ـ كأنك تشاهد لوحة للفنان الأمريكي المعتوه (آندي وورهول).

وهي جميلة بالفعل، أحببتها رغم كل ما ذكرت. موقعها جميل، وبحرها جذّاب، وتربتها تتوهّج مثل التبر. فيها مساكن ودور لا تخلو من الفخامة على الشاطىء، وفي الحي الذي يقطنه الرئيس. وسط ذلك الموات، تجيش الحياة أحياناً في دفْقات مدهشة. تمتلىء المشاهد بالمصلين، وتعج الطرق بالناس رجالاً ونساء.

في غمرة ذلك الموات، تخطر نساء الصومال بقاماتهن الشوامخ كأنهن أميرات وافدات من زمان آخر.

والرجال يسيرون لا يعبأون بأحد ولا بشيء. كأن الثورة لم تحدث، وكأن زياد بري لم يكن. ترى لبرهة قصيرة ذلك الاحتمال الرائع ـ لو أن هؤلاء البشر أتيح لهم أن يمتدوا في المساحات التي يستحقونها من آفاق الحياة.

١٧

أعْظِمْ بها من وزارة! تشمل الإعلام والثقافة والسياحة. لها وزير ومساعد وزير ووكيل وزارة ومدير عام، وعدة مدراء، بينهم مدير للتلفزيون، ولم يكونوا قد أنشأوا التلفزيون بعد، ولا أحد منهم يهمه الأمر.

لا أحد يرد على التلكسات ولا الرسائل ولا البرقيات ولا التلفونات. وكنت حين تعييني الحيلة ألجأ إلى الملحق الثقافي للصومال في باريس، وهو رجل فاضل اسمه أحمد قورو، فيبذل هو أيضاً قصارى جهده، مستنفراً وزارة الخارجية في مقديشو. ولكن لقد أسمعت لو ناديت حيّاً. لم أُدهش حين علمت ذات يوم أنه ترك العمل مع حكومة الصومال، وأصبح لاجئاً سياسياً في لندن. كذلك استقال السفير ونجا بجلده.

كان الصومال ينهار ويتساقط في الداخل والخارج، و«الثورة» ماضية

قدُماً و«الزعيم القائد» يحتفل احتفالاته البائسة، بانتصاراته الموهومة، عاماً بعد عام. أكثر من عشرين عاماً.

لو كنتُ حكيماً لنفضت يديّ حينئذٍ، ورضيت من الغنيمة كما فعل أحمد قورو، ولكنني قلت أسافر إلى مقديشو على أي حال، وقد استبدّ بي أن أعرف أي دولة هي هذه الدولة العجيبة التي أقحمت نفسي في أمورها طواعية واختياراً. وكان صاحبي «مستر سين» يتابع مصاعب علاقتي بالصومال، لا يكاد يخفي سعادته أنني دخلت في ورطة. سوف يقعد مني فيما بعد مقعد القاضي «ن» المتهم، أنني بدّدت مال المنظمة على قلّته، في السفر والدراسات وإرسال الخبراء إلى الصومال، دون أي أثر يذكر، ولم أكن وحدي في ذلك، لو يعلم، فقد وجدت في مقديشو عشرات أمثالي، من موظفي منظمات الأمم المتحدة وخبرائها، ومنظمات الجامعة العربية وغيرها يلاحقون سراب الصومال الخادع.

لم أجد أحداً ينتظرني حين وصلت، كنت قد تنقّلت من طائرات إلى طائرات، وغفوْتُ وصحوتُ في مطارات بعد مطارات. حتى مكتب الأمم المتحدة للتنمية لم يحرّك ساكناً، وجدت فيما بعد أن مديره الهولندي قد يئس تماماً من عمل أي تنمية في الصومال، فاستسلم لتيار الخمول السائد، وانصرف إلى لعب «الجولف» وصيد السمك وعمل رحلات في البر. والصومال بلاد متنوعة الجمال، مليئة بالمسرات لمن يطلبها.

ولم أجد أحداً من «المسؤولين» في وزارة الإعلام والثقافة والسياحة. لا الوزير ولا نائب الوزير ولا وكيل الوزارة ولا مدير عام الوزارة. وكنت أجد دائماً مدير المطبوعات، وهو أيضاً مسؤول عن شؤون

الرقابة. وإذ إنني لم أتبين صحفاً ولا كتباً، فقد عجبتُ من أمره. أصبحت ألاحق «المسؤولين» كمن يطلب ديناً. ثم ذات يوم، وبمحض الصدفة، وجدتهم جميعاً مرة واحدة، وقابلتهم جميعاً، الواحد تلو الآخر، ببساطة، كأنهم كانوا موجودين دائماً، ينتظرونني، وأنني لم أجدْهم لأنني أعمى، لا أرى الشيء وهو واضح أمامي.

استقبلوني بحرارة بالغة ولطف عجيب ـ وذلك في طبع الصوماليين عموماً، ثم لأنني سوداني، فبين الصومال والسودان صلات وعلائق من نوع خاص، يرون في السودان القدوة والمثل. مثْلُهم من (عرب الأطراف)، عروبتهم قد يُطلب لها البرهان. وأيام الاستعمار الإنجليزي، كانوا يرسلون الصوماليين في بعثات إلى مدارس السودان، وإلى كلية غوردون، ثم جامعة الخرطوم.

بعد الاستقلال، اعتنى السودان بالصومال، فأعانهم بالأطباء والمدرّسين والمهندسين والقضاة وخبراء الزراعة وغير ذلك. شعب الصومال الوفي لم ينسَ ذلك للسودان. هذا إلى جانب وشائج أخرى. فوجوه الصوماليين وسحنهم، لا تكاد تميزها عن السودانيين. وموسيقاهم وأغانيهم، يحبون أحمد المصطفى وحسن عطيّة والكابْلي والبلابل مثل السودانيين.

قلت لمدير عام الوزارة ذات يوم، وكنت قد أنست له بصفة خاصة:

«لماذا لا تجلسون في مكاتبكم؟ أين تذهبون كل صباح؟»، أجابني بتلك الطريقة الصومالية الجذّابة:

«يا أخي أنت ما تعرف أننا في حالة حرب؟ نحن مشغولين في حرب الأوغادين».

«وأنتو في وزارة الإعلام ما لكم ومالْ حرب الأوغادين؟».

«كيف ما لْنا ومال حرب الأوغادين؟ يا أخي الدولة كلها في حالة استنفار».

«طيب يا أخي فهمنا الجيش يحارب في الميدان. مش مفروض الإعلام يساند المجهود الحربي؟».

«نعم. لهذا السبب القيادات في الدولة في حالة اجتماعات مستمرة».

لا عجب أن الدولة انهزمت في حرب الأوغادين. وثمة أمر آخر حيّرني في الصومال. النّظم الدكتاتورية، كما هو معروف، تفتعل صراعات خارجية، تكون حروباً في الغالب، تُقدّم للشعب على أنها دفاع عن تراب الوطن وذوْد عن كرامته. تُعبّأ الجماهير، وتؤجّج نيران العواطف الوطنية، وتقوم المظاهرات. تُحرق أعلام بعض الدول، ويعتدى على سفاراتها، وتقدم العرائض وترسل الاحتجاجات. أصبح هذا إجراءً روتينياً تفعله أي ثورة تحترم نفسها، تُلهي به الناس عن فساد الإدارة، وسوء الحال، وبؤس الحياة في داخل البلد.

إلّا هذه «الثورة» العجيبة التي لم يشهد العالم مثيلاً لها من قبل، اشتعلت نيران الحرب وخمدت، وقُتل من قتل وجرح من أبناء الصومال، وضاعت الأوغادين، ومدينة مقديشو تتقلّب في بؤسها

العادي، كأنْ لا علم لها ولا خبر، و(الزعيم القائد) لا يُسمع ولا يُرى، ووزارة الإعلام والثقافة والسياحة تسير أو لا تسير، بلا وزير ولا وكيل ولا مدير.

١٨

لا أدري من قال «القرن الأفريقي»، والقرن يكون في الرأس، فكأنهم قلبوها رأساً على عقب، وجعلوا عاليها سافلها، وهو أمرٌ لا يبعد عن الصواب. ولو كان استعماراً واحداً لخف البلاء، ولكنهم مزّقوه ثلاث مُزَق. مُزْقة أخذها الإنجليز، فذلك حيث «هرقيسا» في الشمال، ومُزْقة أخذها الطليان، فذلك حيث مدينة «مقديشو»، ومُزْقة أخذها الفرنساوية، حيث جيبوتي اليوم.

كان الصومال مثل لحم لم يسُغْ لطماعه، فتصدّقوا بقطع كبيرة منه على الجيران وأبناء السبيل. أعطوا كينيا قطعة، وأعطوا الإنجليز قطعة لـ «منليك» أمبراطور إثيوبيا لقاء وعده إياهم بمساعدتهم على إخماد الثورة المهدية في السودان. كان داهية لا يُشقّ له غبار، أجاد لعبة الـ (ريال بولتيك) وكان صلاً أفريقياً مع أفاعي أوروبا. ففي الوقت ذاته إذ تعاهد مع الإنجليز لإسقاط نظام الحكم في السودان، أبرم

معاهدة مع حكومة السودان للتبادل التجاري.

كذلك أخذ قطعة كبيرة من الفرنسيين، منحوه إياها من حصّتهم في الصومال، إذْ وعدهم سراً أن يساعدهم ضد الإنجليز لبسط نفوذهم في جنوب السودان. ولو أن ذلك حدث بالفعل، وقد كاد يحدث، إذاً لتغير الوضع كلية في السودان، ولرأينا اليوم في جنوب السودان دولة (فرانكوفونية) ناطقة باللغة الفرنسية. ومن يدري. لعلّ السودان كان سوف ينجو من كثير من التعاسة ووجع القلب.

إلّا أن القوتين الأوروبيتين وقفتا وجهاً لوجه في (فشوده) في أعالي النيل، وحملقت العيون الزرق في العيون الزرق بغضب وأشرعت المدافع الأوروبية قبالة المدافع الأوروبية، وكادت تنشب الحرب ثم رأوا رأياً وأبرموا أموراً، ورضي الفرنسيون بالانسحاب، وترك ذلك الجزء من أفريقيا للإنجليز.

ماذا رأوا في الصومال؟ كان يفي بحاجة أهله، وكانوا في الغالب من البدو رعاة الإبل، وقليل من الزراعة وقليل من التجارة. لكنه لم يكن مثل الكنغو حلماً يسيل اللعاب. لم يكن فيه ذهب ولا فضة ولا ماس ولا بترول ولا رقيق ولا أراضٍ واسعة خصبة للاستيطان. وكان أهله مسلمين كلهم لا سبيل إلى أي نشاط تبشيري بينهم. لماذا لم يتركوه وشأنه؟ لماذا قطّعوا أوصاله بكل ذلك الاستهتار؟

يقول مؤرخ إنجليزي بسخرية واضحة:

«... أثناء ذلك انتهى الصراع الفاتر (بين بريطانيا وفرنسا) على البلاد الفقيرة على ساحل البحر الأحمر، وصحارى الصومال، دون

أن يخلّف وراءه مرارة كبيرة».

كان الصومال في واقع الأمر، شيئاً ثانوياً، بلداً لا يؤبه له، مجرد محطة في الطريق، تلهت به القوى الأوروبية بعض الوقت في لعبة الشطرنج المدمرة، بعضها مع بعض. كان مساحة فارغة على الخريطة، يجب أن تُملأ. كان الاستعمار الأوروبي في أوْجه، مثل كلب أصيب بالسُّعار، يعض وينهش دون سبب.

فهم (منليك) الداهية أصول اللعب، ولم تكن يده غُفلاً من أسباب القوة، فقد كبّد الجيش الإيطالي في موقعة (عدوه) هزيمة نكراء جللتهم بعار حاولوا أن يغسلوه باحتلال إثيوبيا بعد ذلك، في عهد موسوليني. رمى (منليك) بسهم، وخرج بنصيب الأسد ـ أسد يهوذا.

هكذا حكموا على الصومال البائس بالشقاء زمناً لا يعلم مداه إلّا الله. شعب ذو أنفة وكبرياء وملاحم بطولية وذاكرة ترجع إلى الوراء بعيداً. تركوه ممزّق الأوصال، مهزوم الهوية أجزاؤه يحن بعضها إلى التوحّد مع بعض. ولا حول له ولا قوة.

كان الصومال، غداة استقلاله عام ١٩٦٠، يحتاج إلى معجزة. يحتاج إلى زعماء ذوي حنكة ودراية وبصيرة، يلملمون أجزاءه المبعثرة، ويعيدون له إحساسه بذاته. وبدا أول الأمر أن ذلك قد يحدث. ثم حلّت الكارثة مع (ثورة) زياد برّي.

١٩

في زيارتي التالية دلّني ابن حلال على (بنسيون) صغير تملكه سيدة إيطالية طاعنة في السن، من بقايا الوجود الإيطالي في الصومال. علمت منها فيما بعد، أنها وُلدت في الصومال، ونشأت وتزوجت وأنجبت في الصومال. استقل القطر، وجلا الإيطاليون، ومات عنها زوجها، ولكنها آثرت أن تبقى في المدينة التي ألفتها وأحبّتها، مع من فضّل البقاء من أبنائها وبناتها.

لو كان لي من الأمر شيء، لفتحت أبواب العالم العربي على مصاريعها لـ (التلْيان) و(الأقْريق) اليونانيين ـ خاصة اليونانيين ـ فهؤلاء أوروبيون ليس فيهم عنطزة المستعمرين، تجدهم في الحارات والأسواق، يكدحون لكسب عيشهم كسائر الناس، يُصلحون السيارات، ويبنون العمارات، ويبيعون الجبنة والزيتون.

الأقريق أفل نجمهم ودالت دولتهم قبل ظهور المسيح عليه السلام، فلم يستعمروا بعد ذلك أحداً ولم يتسلّطوا على أحد. والتليان كذلك، انتهى أمرهم مع نهاية الـ (باكس رومانا)، اللهم إلّا من بضع سنين على عهد زعيمهم المخبول (موسوليني)، الذي ظن أنه يرجع زمان القياصرة ويوقف الفلك عن الدوران. إلّا أن التليان، مثل الأقريق، مثل العرب، كانوا قد شبعوا من المجد، وأخذوا حظهم من الفتوحات والغزوات، فأصبحوا كما قال الحُطيئة للزّبْرقان:

دع المكارمَ لا ترْحلْ لبُغْيتها
واقْعدْ فإنك أنت الطاعم الكاسي.

حيثما وجدتَ الأقريق والتليان في بلاد العرب، وجدت خيراً وبركة. وقد يكون أن كل ما حدث للسودان من مصاعب بعد الاستقلال، هو بسبب جلاء هذين العنصرين الطيبين منه. ولعل هذه تكون (إيديولوجية) لنظام جديد، فيقوم ضابط في الجيش يحب هذين، ويعمل (ثورة) يكون شعارها (إعادة الإقريق والتليان إلى بلاد السودان).

حمدت الله أن التاريخ قد دار دورته، فقبلت هذه السنيورة الإيطالية أن تكون صاحبة (بنسيون) في مقديشو، بدل أن تكون زوجة لحاكم روماني في سورية أو بلاد أفريقية. قبِلتني نزيلاً عندها في الـ (كروشي دي سود)، وكنت قد تعبت من صراصير هوتيل (جوبا) وفئران نزل (العروبة).

وجدت نزلاً صغيراً من نحو عشرين غرفة، أغلبها محجوز على طول العام لموظفي وكالات الأمم المتحدة وهيئاتها، والهيئات

والصناديق العربية. كانوا مثلي يذهبون ويجيئون، يحدوهم الأمل أن تحدث معجزة ويلمع فجأة بريق ضوء في غياهب الصومال. تتحرك المشاريع، وتجيش الطاقات، وتعتمل الحماسة في الصدور، ويتحسّن الأداء الحكومي. يكتبون في تقاريرهم إلى منظماتهم، أن النظريات التنموية التي سهروا على دراستها وتمحيصها في اجتماعاتهم ومؤتمراتهم، في نيويورك وباريس وروما وفيينا وجنيف، أنها برهنت على صلاحها وقابليّتها للتطبيق. أن تلك الحالة المستعصية في الصومال، بدأت تستجيب للعلاج، انتظمت دقات القلب، وهبطت درجة الحرارة. فتّح المريض عينيه، وانفتحت شهيته للطعام والشراب. كان الصومال بالفعل، مثل حالة مرضية نادرة، من الحالات العسيرة التي ينكب عليها الأطباء يجرّبون فيها فنهم ومهارتهم، وإذا نجحوا، يجدون تلك المتعة المهنية النادرة التي تهوّن عليهم مصاعب عملهم. ربما لأجل ذلك أغدقت منظمات الأمم المتحدة من الخبراء على الصومال، ما لم تغدق إلّا على قليل من بلدان العالم الثالث. كنت مثلهم في ذلك، وأيضاً، كما أدركت فيما بعد، أنه كان يحدوني حافز آخر، هو الشعور بالذنب.

قلت إن ابن حلال قد توسّط لي لدى السيدة الإيطالية فقبلتني نزيلاً عندها، فدخول الـ (كروشي دي سود) في مقديشو لم يكن أقل صعوبة من دخول نادي (الأثينيْم) الأرستقراطي في لندن. وقد كان سودانياً ـ بمحض الصدفة. أقول بمحض الصدفة، لأن أبناء الحلال، وبنات الحلال، لم ينعدموا في الدنيا، من سائر الملل والنّحل، وإن بدا الأمر بخلاف ذلك أحياناً. وتصوّر إن استطعت، مدى سعادتي بتلك النّعمة السابغة. ذلك من بعض بركات السفر والترحال في آفاق الأرض، إن الإنسان قد ينسى لطائف هبات المولى سبحانه وتعالى عليه، لكثرة ما ألفها واعتاد عليها.

فجأة تستعيد طعم (الجدّة) ومذاق (الدّهشة)، كما يحلو لبعض إخواننا النقاد أن يقولوا. وهم على حق. وهل الشباب إلّا هذا؟ وهل الشيخوخة إلّا فقدان هذا؟ أنظر إلى لبيد:

ولقد سئمت الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبيدُ.

لأنك لم تسافر إلى مقديشو يا عمرك الله. كان الكاتب الإنجليزي (أولْدس هكْسلي) يقول:

«إذا لم تكن قد قطعت تذكرتك إلى أثينا فإنك لم تجرّب شيئاً» ـ يقصد أثينا حين كانت أثينا. وأنا أقول «إذا لم تزُرْ مقديشو فإنك لم ترَ شيئاً».

إذهبْ إلى مقديشو، إذا مللت الحياة لكثرة ما أغدقت عليك من هبات لم تعد تحسُّها أو تراها لكثرتها، فاذهب إلى مقديشو. إذا مللت الدار الواسعة والسيارة الفارهة والمائدة العامرة، والثياب الزاهية، فاذهب إلى مقديشو، خاصة في هذه الأيام. سوف ترى وتسمع عجباً. سوف يفارقك الملل، وتستيعد طعم (الجدّة) ومذاق (الدّهشة). ويقيني أنك سوف تجد وسط كل الخراب الذي تقرأ عنه وتسمع، تلك السيدة الإيطالية الباسلة، إن كانت ما تزال على قيد الحياة، تجدها تدير (بنسيون الكروشي دي سود) بكفاءة ومقدرة، وسط كل ذلك الدمار.

سوف تعطيك غرفة نظيفة، وسريراً مريحاً، وطعاماً بسيطاً، لا يسبّب لك التخمة. ولعلي لا أكون مخطئاً إن قلت لك، إنك سوف تلقى

في العشيّات، في فترات الهدنة بين المعارك، كل القادة المتحاربين، يسمرون في مقهى البنسيون، يشربون قهوة الـ (كابوشينو) أو ما هو أقوى، يتمازحون ويتضاحكون، ثم يعودون إلى حروبهم التي لا يموتون هم فيها، ولكن يموت الرجال والنساء والأطفال، من شعب الصومال الكريم المسالم.

كنت أذهب وأجيء كمن يحلُّ ديْناً، كمن يقضي نَذْراً، كمن يكفّر عن خطيئة، وكأن في الصومال عوضاً عن السودان.

لأنني كنت أعيش في باريس، وباريس (مدينة النور) كما أخبرنا أساتذتنا من الروّاد، من مصر ولبنان، وعرب البحر الأبيض المتوسط، المنجذبين أبداً إلى حواضر أوروبا. ومَنْ يلومهم؟ إنه عالم جذّاب، وباريس مدينة مضيئة فعلاً، ربما أكثر مما زعموا لنا، وبطرق مغايرة عمّا زعوا لنا.

زرتها أول مرة عام ١٩٥٤، جئتها من لندن. وما هي إلّا ساعة بالطائرة، أو بعض يوم بالقطار والسفينة والقطار. لكنها دنيا أخرى. كنت متلفّعاً بعباءة الحضارة الأنجلو ـ سكسونية، شغوفاً بآدابها، مقبلاً على تاريخها، معجباً بنُظمها وأساليبها في العيش. أعلم

بالطبع أن الإنجليز قد فتحوا السودان واستعمروه دون وجه حق، وأنهم فعلوا الأفاعيل بمصر منذ عهد محمد علي وإسماعيل، وأنهم أعطوا اليهود وعد بلفور، مما نتج عنه ضياع أرض فلسطين الغالية أخرى الليالي، وأنهم عاثوا ما شاءوا بأرض الرافدين، وتركوا جزيرة العرب (مثل الخباء المُبوَّق).

نعم، كل ذلك لم يكن خافياً عني. إنما سبحان الله. الشباب يفعل كما وصف الحسن بن هانىء أن الخمر تفعل بالمرء. تريك القبيح. الحكمة تجيء ضُحى الغد، وقد لا تجيء أبداً. وإذا كان في الشباب عذرٌ عن الضلال، فأيُّ عذر للمرء إذا ضلّ بعد ضياع الشباب؟

في تلك المرحلة الهوجاء من العمر، من يلتفت إلى هذه القضايا المعقّدة؟ الذي تعرفه وتحسُّه وتلمسه أنك في عالم جديد، يضغط على سمعك وبصرك وعقلك في كل لحظة. وأنت مستنْفَرُ الحواس، يقظ العقل، مليء بحب المعرفة، شهيّتك متفتحة للحياة. هل تجلس وتفكر في الآثار المترتّبة على معركة أُمْ دُرْمان وصندوق الدّين في مصر، وكيف سرق دزرائيلي قناة السويس، وكيف تآمر الإنجليز والفرنسيون على تقطيع أوصال بلاد الشام، وماذا فعل سايكس وبيكو، وماذا فعل لورنس، وماذا فعلت فيرْ ترود بلْ؟

مستبْعد هذا، أغلب الظن أنك تُلقي بنفسك في اللُّجة، وتغطس وتطفو وتضيع وترجع. عندك متّسع من الوقت. ما أفسح ما يبدو لك العمر حينئذٍ. غداً.. وغداً.. وغداً. سوف تجد بُراحاً من الوقت للتأمل، والتحسّر على الزمن الضائع. فسحة من الوقت للندم.

حينئذٍ فقط، تفهم معنى قول الحسن بن هانىء:

كان الشبابُ مطيّة الجهل
ومُحسِّن الصَّبَوات والعذْلِ

لا عليك الآن، فأنت في عشرينيات العمر، وهذه مدينة الضوء. الضوء في باريس ليس كما عهدت في لندن. هذا جزء من جسد القارة الأوروبية الممتد، وبلاد الإنجليز تنتمي إلى العالم الجرماني ـ الإسكندنافي الداكن. كانت لندن تلك الأيام، سماؤها أبداً كالحة بسبب السّحاب الذي يغطّيها أكثر العام، والضباب الكثير المخلوط بدخان الفحم الحجري من مداخن البيوت، اليوم تغيّر الطقس، وتوقف استعمال الفحم، وقلّ الضباب. كأن الظلام، يومئذٍ هو الأصل، والضوء هو الاستثناء.

رائحة لندن رائحة مبتلّة. رائحة الشوارع المبتلة، رائحة الثياب المبتلة، رائحة القطارات المبتلة، رائحة البيوت المبتلة. أضف إلى ذلك روائح الطعام. القرنبيط المغلي والكرُنبْ المغلي، والبقْل المغلي، والبيض المقلي ولحم الخنزير المقلي، والبطاطس المقلي. أضف إلى ذلك رائحة البحر الذي يحيط بالجزيرة ويعترض مشارع الرياح.

رائحة باريس خليط من روائح القهوة والثوم والنبيذ والعطور والخبز الساخن الذي خرج لتوه من الفرن. لم يكن الإنجليز يشربون القهوة تلك الأيام ولا يستعملون الثوم في طهيهم، وما يزالون إلى اليوم يعتبرون الإسراف في استعمال العطور من فساد الذوق. وكان خبزهم بلا رائحة.

اليوم تغيّر الحال قليلاً. بدأ الإنجليز يقتربون متردّدين من القارة الأوروبية ورغم معارضة جزء كبير من الرأي العام، كاد النفق الذي يربط بينهم وبين فرنسا أن يتم. لا عاصم لهم بعد اليوم. سوف

يدخلون في غمار العالم الأوروبي العريض، شاءوا أو أبوا. تجد الآن في بعض الأماكن القهوة الفرنسية والثوم في الطعام، وفي بعض المخابز تجد الـ (Bagette) الخبز الفرنسي المستطيل مثل العصا.

كأن الضوء في باريس هو الأصل والظلام طارىء عليه. وليس فقط لأن الشمس تسطع أكثر والسماء أقل كُدْرة مما هي في لندن، إنما أيضاً اتساع الشوارع والميادين، وطراز العمارة، وألوان أسقف البيوت. ينعكس الضوء عليها بطرائق وألوان تُعطي المدينة بهاءً لا يوجد في لندن.

ميدان الطرف الأغر، رغم ما بذله الإنجليز من جهد، لا يقاس بميدان الـ (بلاس كونكورد) وشارع الـ (Mall) الذي يؤدي إلى قصر بكنجهام، لعلّه أعرض في الواقع، ولكن لماذا يخيل إليك أن الـ (شانزاليزيه) أكثر اتساعاً؟ حتى نهر التايمز العتيد يبدو متواضعاً بالقياس إلى نهر السين.

هذه مدينة تجعلك تتذكّر باستمرار، إذْ لندن تجعلك تنسى، أشياء تجيئك كأنما من ماضٍ سحيق ومن عصور غابرة. لعلها الأشياء التي أخذوها عن العرب زمان تألق مجدهم في الأندلس، أيام كانت غرناطة وأشبيلية وقرطبة. أشياء أخذوها ثم أغفلوا أن يذكروها، عن قصد أو عن غير قصد. بل إن العرب أنفسهم نسوا أنهم أعطوها ذات يوم.

لعلنا حين نقع في غرام حضارات الآخرين، إنما نحبّ أجزاء ضائعة من أنفسنا، لا نعلم أنها جاءت من عندنا، ونظنّ أنهم اجترحوها من العدم.

٢١

اعترض طريقي منذ أول يوم، رجل معتدل القامة، متوسط العمر، دقيق تقاطيع الوجه، كأنه من قبيلة الـ (بني عامر) في شرق السودان، الدّم الحامي والسامي فيه بكميات متساوية. ليس به عاهة ولا توجد في عينيه ذلّة أو انكسار، تقدّم نحوي كأنه كان ينتظرني، ونظر إليَّ بجرأة تقرب من الوقاحة:

«يا سوداني، هات (.....) شلن».

أعطيته ما سأل، عددتها عدّاً، لا أقل ولا أكثر، كأنني أقضي ديْناً، كأنني أوفي نذراً، كأنني أكفّر عن خطيئة.

صار هذا شأني معه، مدة إقامتي، وحين انتقلت إلى هوتيل الـ (كروشي دي سود) لحق بي، لم يكن عسيراً عليه أن يعرف أين

ذهبت. لم يكن متسولاً. كان طالب حق. يدخل يمشي على مهل، وقد يحيّي أحداً، وقد يجلس في المقهى، وقد يطلب قهوة.

لا يتحدث معي ولا يشكرني. يأخذ (حقّه) دون أي إحساس بالجميل. لا يعرف اسمي ولا عملي، وأنا لم أسأله عن اسمه ولا عمله. كان عاطلاً بلا عمل، لا شك.

أنا (سوداني) وكفى ... لست إنجليزياً ولا فرنسياً ولا إيطالياً... الناس الذين تسببوا في البداية فيما حدث له.. لا، ولست زياد برّي، الرجل المسؤول مسؤولية مباشرة أنه الآن عاطل عن العمل.

ماذا أعطيته؟ بضعة شلنات. لا أظنه أخذ مني طول مدة إقامتي أكثر مما قيمته عشرة دولارات. يذهب في سبيله وأذهب في سبيلي. أحياناً أراه في المسجد القريب من الهوتيل في صلاة العشاء. كان يحلو لي أن أصلي العشاء في ذلك المسجد. صوت الإمام حنون حزين، يرتّل القرآن بقراءة وَرْش. أراه نظيف الثياب، حسن الهندام، مؤْتزراً إزاراً يمانياً، وعلى رأسه الطاقية الصومالية المزركشة، يتجاهلني كلية كأنه لا يعرفني. إنه هنا شخص آخر.

ليس بيد الأمريكان ولا الإنجليز ولا الفرنساويين. ليس بيد زياد برّي. إنه هنا، في هذا المكان، يعلم في حقيقة نفسه أن الأمر بيد الذي لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما منع. سوداني، أو صومالي، مثله. وأيضاً عبد من عباد الله سخّره لما جعله مُسْتَخْلفاً فيه، على قلّته. مثله، عابر سبيل، ضيف على مائدة الحياة. وكون الحياة أعطتني أكثر مما أعطته، وجعلتني أعيش في باريس وهو في مقديشو، وأعمل في منظمة اليونسكو وهو عاطل بلا عمل... آه.

تلك أيام يداولها الله بين الناس وهو العليم الخبير.

باريس. شوارع باريس في شهر آب/ أغسطس جحيم مقيم لأولي النُّهى. مدينة تعرض مفاتنها على قارعة الطريق ولا تترك للخيال بقية. عالم جذّاب، أيْ نعم، لكن ما أبعد كل هذا عن منحنى النيل وعن مقديشو. خيرات الأرض الفرنسية مكدّسة، تلالاً تلالاً، في الـ (مُنُوبِري). الـ (باقتْ) حارٌّ يُقرْقِش، خرج لتوه من الفرن في المخبز على ركن شارع (قوتنْبيرّج). الـ (كرواسان) التي تغنّى بها محمد الصاوي محمد رحمه الله. قرأنا له ونحن صبية في المدارس الثانوية، أنه كان يتمتع بها مع القهوة الفرنسية بالحليب، الـ (كافي أوليه) وهو جالس في الصباح في الـ (تراس) الزجاجي في مقهى الـ (دوم). يقرأ صحيفة الـ «فيغارو» ولا بد.

أي سحر في تلك الأسماء؟ كان (جان بول سارتر) يُلمّ أحياناً بمقهى الـ (دوم)، يجيء من مرابعه المعتادة في (سان جرمان دي بري) ومقاهي الحي اللاتيني حول الـ (بولفار سان ميشيل). معه رفيقته (سيمون دي بو فوار) وحوله المعجبون والحواريون. يجادلون في هيقل وماركس وكيرْكْقارد والوجودية. يلعبون بالأفكار كما تلعب بكرة الـ (بِنجْ بُنجْ). لا توجد قيود في ذلك العالم المفتوح.

الأستاذ العميد عشق كل ذلك، وبقية الأساتذة الروّاد، من مصر وبلاد الشام. ومن يلومهم؟ نقلوا لنا نُتفاً من تلك الأفكار، وربما أخذوها مأخذ الجد أكثر مما أراد أصحابها. ونقلوا لنا الأسماء. نقرأ، ونحس النشوة ونصاب بالذعر. يا لها من أسماء! يا لها من أفكار! يا له من عالم جذّاب!

صدقوا. ولكنه (عالم ليس لنا)، كما قال غسان كنفاني رحمه الله. لم نشارك في مخاضاته السياسية، ولا ثوراته الصّناعية، ولا قفزاته الفكرية. تقول، ابن رشد وابن سينا وابن الهيثم وابن خلدون؟ من يذكر لك هؤلاء الآن؟

تمتّعْ بها ما أسْعفتْك، ولكن تذكّر أنّ تحت هذا المظهر اللاّهي، تحت معرض الأزياء المتصل الذي يتدفق أمامك في شارع الـ (شانْزاليزيه)، تحت العبث الفكري والجدل الفلسفي والسياسي في مقاهي الحي اللاتيني، تحت بذاءات حي (مونبارناس) والـ (بيقال) وخلاعة الـ (فولي بيرْجير) والـ (مولان روج) تحت كل هذا قاعدة صلبة من الصناعة والبنوك والشركات العملاقة، والعتاد الحربي، وقطارات الـ .T.G.V الكهربائية السريعة، وخرّيجي الـ (إيكُولْ نورْمالْ سوبيرْ ييرْ) والـ (إيكولْ ناشْيونالْ دَ أدْمنسْتراسْيون) ـ المعهد القومي للإدارة ـ العقول التي تحكم فرنسا في كل العهود، ومهما تغيرّت النظم والحكومات. ثم بعد كل كذا عام، يجيئهم رجل عظيم حقاً مثل ديجول.

يا لها من أسماء لها في اللّسان طعم الشهد. وقد أعطانا الدكتور العميد رحمه الله عدداً منها. حدّثنا عن (كُورنييْ) و(موليير) و(راسين) و(بلزاك) و(فكتور هوقو) و(أميل زولا). أسماء.. أسماء.. أسماء. آمن مخلصاً أن يربط مصر بالعالم (الهلّيني) عبر البحر، ومن ثم بفرنسا، فقد كانت (لا فرانْس) في رأيه، هي وريثة (أثينا) وحاملة مشعل الحضارة بعدها.

لا تثريب عليه، فهو عالمٌ آسرٌ بحق. ولعلّني لو كنت مكانه، لفعلت فعله، ورأيت رأيه. ولكنْ ما بال الدكتور العميد، رحمه الله وغفر

له، لن يشك (حسب علمي) أن هومير هو مؤلف (الإلياذة) والـ (أوديسه)، وقد زعموا أنه عاش منذ ألف ومائتي عام قبل ميلاد المسيح، ولكنه شك في أن يكون امرؤ القيس هو امرؤ القيس؟ وما امرؤ القيس مِنَّا ببعيد.

٢٢

لم يكد يستقر بنا المجلس في دار الأستاذ محمد سعيد طيّب، حتى دخل رجل ربعة القامة، أميل إلى الطول منه إلى القصر، مُبيضّ شعر الرأس والشارب والحاجبين، ينحني قليلاً إلى الأمام في مشيه، يرتدي الـ (أوفر أول) الأبيض الذي يميّز الأطباء، لعله في أواخر الستين من العمر. كأنني أعرفه، فقد كان فيه شيء مألوف محبّب إلى النفس، مثل صديق لم تقابله منذ زمن. لكنني لم أكن أعرفه.

لم يصافح الناس، ولكنه حيّا على استحياء، وجلس في مقعد خال بجواري. حينئذٍ قدّمه الأستاذ محمد سعيد طيّب، بأنه الدكتور يس عبد الغفار، أخصائي أمراض الكبد الواسع الشهرة.

علمت في ما بعد من لقاء له مع مجلة «الشرق الأوسط»، أنه ولد عام ١٩١٧ في قرية (تَلا) بمحافظة المنوفية، وهو يصف ذلك بقوله:

«... كنت من بيت متوسط الحال، كان والدي مزارعاً من المزارعين المكافحين... توفي والدي فظهرت والدتي بمظهر عظيم. ظهرت كأمّ يمكن أن تبذل أقصى ما لديها، ويمكن أن تضحي من أجل بيتها وأولادها، فحملتني أنا وأخي في قلبها وأنقذتنا من أعاصير الفقر والحرمان... لقد تمسّكت بالصبر والتحمل فصقل الفقر نفسي بالألم، ولا يخلق الرجولة فينا إلّا الألم».

كان واضحاً في سمت الرجل والسكينة التي تحيط به، أنه إنسان شملته عناية الله وسدّدت خطاه. أتاح له تفوّقه أن يدخل مجاناً كلية الطب في القاهرة، وقيّض الله له رجلاً من أهل الخير أعانه على نفقات الدراسة. يقول في ذلك:

«أما عن اختياري للطب فهذا يعود بي مرة أخرى إلى نشأتي الدينية، فقد قرأت في مكتبة جدّي لوالدتي كتباً متنوّعة منها «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي. وعلمت من هذه القراءات أن تعلّم الطب في الشريعة (فرض كفاية). وهذا معناه أنه يجب على أي مجتمع أن يكون به من يتعلّم الطب، فإذا تعلم أحد أفراد المجتمع الطب وعمل به فقد (كفى) عن المجتمع».

بعد تخرّجه بقليل اجتاز امتحان الكلية الملكيّة في لندن ونال زمالتها. يقول:

«ومن الأشياء التي أفخر بها في حياتي العلمية أنني كنت أصغر طبيب حصل على عضوية هذه الكلية العريقة، فقد دخلت امتحانها ونجحت من أول مرة، وكان معي في الامتحان نفسه ستة أطباء من مصر، كان بعضهم يحمل درجة الدكتوراه في الأمراض الباطنية...

إلّا أنني نجحت ورسب بعض حاملي درجة الدكتوراه».

مضى الدكتور يس عبد الغفار في طريقه يحالفه التوفيق الذي يخص به الله سبحانه وتعالى السعداء من عباده، فأصبح من العلماء المرموقين في أمراض الكبد، يشار إليه بالبنان في كل العالم. كان في زيارة عمل قصيرة إلى جدة، وقال إنه ترك مرضاه في المستشفى وجاء ليحضر (ثلاثائية) الأستاذ محمد سعيد طيّب.

حدّثنا الدكتور يس عبد الغفار عن أمراض الكبد، بعد أن طلب منه صاحب الدار. تحدّث لا كما يتحدث الأطباء ولكن كما يتحدث الشعراء والفلاسفة والمصلحون، ولم يكن متدفّقاً في الحديث، كما تجد عند بعض الناس، تحسّ أنك فتحت صنبوراً تدفّق منه الماء، وأن الحديث قد قيل مرات من قبل، وأن الأفكار كاد يصيبها البلى من كثرة ما تردّدت. كان حديثه غضاً طازجاً كأنه يقال لأول مرة. وقد أدهشني فيه انعدام أي ظل للخيلاء أو الرّضى عن الذات، ولو أنه أحسّ بشيء من الزهو لما لامه أحد، بسبب نجاحه الكبير وشهرته العظيمة.

قال إن أمراض الكبد هي أكبر خطر يهدّد الأمة العربية والإسلامية، وأن القضاء عليها مهمة حضارية لا يوجد أهم منها. وضرب لنا أمثلة عدة على صدق قوله. ما أكثر الأدواء التي تتهدد الأمة العربية والإسلامية، ولكن هذا على الأقل داء يمكن علاجه، وفي التاريخ أن حضارات قد انهارت، بسبب أمراض الجسم، قبل أمراض الروح والعقل.

في ختام حديثه قال إن حلمه الكبير هو أن ينشىء في مصر مركزاً

لأمراض الكبد يخدم البلاد العربية والإسلامية كلها، ويهتم إلى جانب العلاج، بالدراسات والبحوث. وقال:

«نحن دائماً ننتظر حتى يجيئنا الأجانب لدراسة أمراضنا. نحن لا ينقصنا العلم ولا تنقصنا الخبرة ولا تنقصنا القدرة، فلماذا لا نتولى دراسة أمراضنا بأنفسنا؟».

يا له من سؤال! لو استطعنا أن نجد الإجابة له، إذاً لوجدنا مفتاح اللغز برمته .وقديماً قال أبو الطيب:

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

سألته كم يكلّف إقامة هذا المركز؟ فأجاب «ثمانية ملايين جنيه مصري».

يعني أقل من ثلاثة ملايين دولار، قد يفقدها ثري واحد ذات ضحى، لو نزل سعر الدولار بضعة سنتيمات في بورصة نيويورك!

ليس أقبح من المال في أيدي اللئام، إلّا الفقر في ساحات الكرام، وكان الصحابي الجليل سعد بن معاذ يدعو الله «اللهم إنك تعلم أن الفقر لا يصلح لي ولا أصلح له، فهبني المال». لم يكن يطلب المال لنفسه، ولكن ليفكّ به ضوائق الضعفاء والمحتاجين.

إنما أهل جدة، فيا لهم من إخوان مروءة، ويا لهم من ملبين إذا دعاهم داعي الخير، يصدق فيهم قول أبي العلاء رحمه الله:

يــروقــون ألــفــاظــاً وإنْ لم يــفــكّــروا
وكــتْــبــاً وإن لم يُــصــلــح الــقــلــم الــقــطُّ
ومــا قــســطــوا[١] إلّا عــلَــى المال وحــده
وذلــك مــنــهــم فــي مــكــارمــهــم قِــســطُ[٢]

وكأن الرجل الأَرْحبيّ الدكتور محمد عبده يماني، وكان جالساً جنبي إلى يميني، سمع ما دار في فكري، فقال:

«أنا أتعهد أن نجمع لك ثلث هذا المبلغ من أهل الخير في جدة».

أمّن الناس على قوله، وبدا التأثر على وجه الدكتور يس عبد الغفار، وأخذ يردد «الحمد لله. الحمد لله».

وكان في المجلس رجلٌ يجلس صامتاً، فقد دخل وقعد بهدوء. همس في أذن جاره، فقال:

«السيد حسين القزّاز يتبرع بمليون ريال».

هذا حسين القزّاز رجل الأعمال المعروف، ونظرتُ إلى الدكتور يس فإذا وجهه المضيء قد زاد إشراقاً وظل يردد «الحمد لله. الحمد لله. هذا من فضل ربي. طب حتى أنا جيت بالصدفة، على غير موعد».

كانت ليلة مباركة في دار الرجل الفاضل محمد سعيد طيب. وما أجمل أن يكون الإنسان شاهداً، يرى نبع الخير ينبثق أمام عينيه. قام

ذلك الإنسان المبارك وقال إنه يجب أن يعود إلى مرضاه في المستشفى، وكانت الساعة قد قاربت منتصف الليل. رجل في منتصف السبعينيات من العمر، عليه سيماء أولي العزم من الأولين.

وعجيب كيف أن الخير يولّد الخير، والرّحماء يجذبون إليهم الرُّحماء. بعد أيام في الرياض ذكرته لرجل من الرجال الأماجد المعدودين ممن عرفت في هذا الزمان، الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري. قلتُ ألْفت نظره إليه، فأنا أعلم شغفه بالتعرف على أولي الفضل. تهلل وجهه وقال:

«الدكتور يس عبد الغفار؟ إنه صديقي. أعرفه من زمن».

(١) قسطوا، جاروا.

(٢) قسط، عدل.

أعارني صديقي الكاتب الصحافي الأديب، الأستاذ محمود سالم خلال زيارتي الأخيرة للقاهرة، كتاباً لم أكن اطلعت عليه من قبل. وذلك شأنه كلّما أزور هذه المدينة المنيرة، يحلو لي أن أتفيأ ظل معرفته وأدبه، وأذهب وقد انتبهت إلى بيت من الشعر لم أكن قد انتبهت إليه من قبل أو كتاب لم أكن قد قرأته.

أما الدكتور زكي مبارك رحمه الله، فله عندي تقدير عميق. إنه من الأساتذة العماليق الذين وضّحوا معالم الطريق لأجيال سبقتنا وأجيال أتت بعدنا. وقد تميّز بأسلوب جذّاب، وعلم غزير ونظرات جريئة ثاقبة، انفرد بها أحياناً عن الذوق الغالب في زمانه. ولعل الحياة لم تنصفه كما ينبغي، والحظوظ لم تسعفه كما كان يستحق.

لأجل ذلك كله، عجبت غير قليل، لما بدا لي من تحامل في نظرته إلى (بردة) الإمام البوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك في معرض الموازنة بينها وبين قصيدة أمير الشعراء التي نسجها من غزْل قصيدة البوصيري.

ومن الإنصاف القول أنني أكتب بعد قرابة ستين عاماً من زمن كتابة الدكتور زكي مبارك، وأكتب في فيض أثَر وجداني لم يذقه الأستاذ الكبير حين كتب، فقد قرأت (البردة) منذ شهرين في روضة مسجد الرسول الأمين، وشتّان بين أن تقرأ القصيدة في (مصر الجديدة) بوازع التمحيص والنقد، وأن تقرأها في رحاب من رفعت القصيدة تمسُّحاً في أعتابه، في غمرة الحب المحض.

يبدأ الدكتور حديثه بالسخرية من القصة التي ذكرها البوصيري في سبب تسميته لقصيدته بـ«البردة». يقول البوصيري:

«كنت قد نظمت قصائد في مدح الرسول (ص)، منها ما كان اقترحه عليّ الصاحب زين العابدين يعقوب بن الزّير. ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى أن يعافيني وكرّرت إنشادها ودعوت وتوسلت، فنمت فرأيت النبي (ص) فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى عليَّ برداً فانتبهت، ووجدت فيّ نهضة فقمت وخرجت من بيتي».

لا أدري لماذا لم يقبل الدكتور زكي غفر الله له، هذه الثقة المؤثرة، وقد اتفق الأطباء وعلماء النفس، أن الحبّ الصادق يفعل

مثل هذا وأكثر، فما بالك بحب الرسول (ص)، يقول الدكتور:

«وفي هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيري، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها، أو قصيدة ينشدها، كما برىء البوصيري بقصيدته، ولو مرض مفتي الديار المصرية ـ لا سمح الله ـ ما استغنى بالبردة عن الطبيب!».

هذا مبلغ علم الدكتور زكي مبارك، رحمه الله وغفر له، وهو جالس يكتب في داره في (مصر الجديدة) عام ألف وتسعمائة وثلاثين وستة، أو نحو ذلك. الله أعلم هل كان الوقت نهاراً أو ليلاً، وهل كان الفصل صيفاً أو شتاء، وهل كان الدكتور رائقاً أم معتكراً.

ومن عجب أنه قبل أن يرحل إلى باريس، كان في الأزهر، مثل الدكتور طه حسين. ورغم ما كان بينهما من خلاف، فقد سار هنا على مذهبه، وذاق بلسانه.

لا يستويان. رجل محبّ، ملأ الحب عليه آفاق نفسه، متجهاً بكليّته إلى من يحب. وآخر لم يفتح الله عليه في تلك الساعة، مثقل بعلم لا فائدة منه في هذا المقام، ولا بركة فيه. نظر بعيون ليست في أم رأسه وذاق بأفئدة الآخرين، لأنه كان قد تكدّرت عليه المنابع. كلّنا تكدّرت عليه المنابع، لذلك فإن «طريق العودة كان أشق».

إنني أصدّق البوصيري. لا بد أن الأمر كان كما وصف. لم تشْفه القصيدة في حد ذاتها، ولكن شفاه الحب. أفاض الله عليه من

أفضاله فاشتعلت جذوة الحياة في جسمه بعد أن كادت تنطفىء، فقام من حينه سليماً معافى. وما العجب في ذلك؟

رحم الله زكي مبارك. لو أن العمر امتدّ به إلى هذا الزمان لرأى كيف تنهار صروح «العقلانية» الأوروبية، التي وضعنا ثقتنا فيها زمناً، فأعمتنا عن الكنوز التي تزخر بها ديارنا ولا نراها. وشتان بين (العقل) و(العقلانية). وتلك صروح أخذ يهدّمها الذين أقاموها أصلاً، مستغلّين الوسائل التي بنوها بها.

يقول الدكتور:

«وهذا نوع من الغفلة قديم، فقد كان الزمخشري يذكر شيئاً من مثل هذا عن سور القرآن. وكذلك نلاحظ أن البوصيري كرّر عبارة (صلى الله عليه وسلّم) خمس مرات في هذه الفقرة الصغيرة. وتكرار الصلاة على النبيّ كلّما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين».

عجيب، وعجيب أيضاً أن أوروبيين أمثال (جارودي) بعد أن أمرضتهم مشاربهم الآسنة، جاءوا يشربون من مناهلنا التي نحن عزفنا عنها. وعجيب أن رجلاً مثل المرحوم الدكتور أحمد زكي وهو عالم كيميائي، ومثل الدكتور يس عبد الغفار أطال الله عمره، وهو عالم طبيب، هما أقرب جداً إلى روح البوصيري من الشاعر الأديب الدكتور زكي مبارك.

من مزايا الدكتور طه حسين رحمه الله، وهي كثيرة، أنه كان مرهف الحساسية لتنوع النشاط الثقافي في العالم العربي. كان يدرك أن ريادة مصر وزعامتها، وهما أمران لا خلاف عليهما، ليس معناه أن مصر وحدها تنتج الثقافة ويكون بقية العرب مجرّد مستهلكين. كان يريد لمصر أن تكون واسطة عقد ثمين، مرصّع باللآلىء النادرة، قمراً مُنيراً في سماء عامرة بالنجوم، وليس قمراً وحيداً في سماء مظلمة.

لذلك كان يحتفي بالمواهب العربية حيثما وُجدت. وقد انتبه في وقت مبكّر إلى موهبة تونسية كبرى، لا يزال صاحبها إلى اليوم، ليس معروفاً على نطاق واسع في المشرق العربي. ذلكم هو محمود المسعدي، صاحب «السّد» و«حدّث أبو هريرة قال» و«مولد النسيان». كل كتاب من هذه الكتب، تحفة نادرة، ولؤلؤة عجيبة لا

تتأتّى إلّا لعُتاة الغوّاصين في بحار المعاني. ولا مراء أن محمود المسعدي أمير من أمراء البيان العربي في هذا الزمان.

كتب الدكتور طه حسين منوّهاً بكتاب «السّد» في صحيفة «الجمهورية» القاهرية، بتاريخ ٢٧ شباط/ فبراير عام ١٩٥٧:

«أريد اليوم أن أنتقل بقرّاء هذا الحديث من مصر ومن أدبائها وكتّابها، إلى وطن عربي آخر لا نكاد نعرف عن حياته الأدبية شيئاً ذا بال، لأن ظروف السياسة حالت بيننا وبين الاتصال الدقيق المنظم به وبأدبه آماداً طوالاً، وهو تونس (...).

والأثر التونسي الذي أريد أن أتحدث عنه اليوم قصة تمثيلية رائعة ولكنها غريبة كل الغرابة، كتبها صاحبها محمود المسعدي لتُقرأ لا لتُمثل، ولتُقرأ قراءة فيها كثير من التفكير والتدبُّر والاحتياج إلى المعاودة والتكرار. وحسبك أني قرأتها مرتين ثم احتجت إلى أن أعيد فيها النظر قبل أن أملي هذا الحديث.. وضع فيها الكاتب قلبه كله وعقله كله، وبراعته الفنية وإتقانه الممتاز للغة العربية ذات الأسلوب الساحر النضر والألفاظ المُتخيَّرة المُنتقاة، وقصد بها إلى إثارة التفكير الفلسفي لا إلى التسلية والتلهية، ولا إلى الإمتاع السهل والإثارة اليسيرة، بل إلى تعمق الحياة والفِقْه والنفوذ إلى ما وراءها..».

كتب محمود المسعدي روايته «السُّد» ـ بضم السين مع التشديد ـ عام ١٩٤٠، وأصدرها بعد ذلك بزمن. وقد فرغ من كل كتبه منذ خمسين عاماً وليس له، حسب علمي، غير هذه الكتب الثلاثة.

شغلته الحياة العامة بعد ذلك. كان من الرّعيل الأول من المجاهدين في سبيل استقلال تونس. وُلد بـ«تازرْكة» عام ١٩١١، وحفظ القرآن الكريم على يدي والده. ثم درس في المدرسة الصادقية العريقة، التي أخرجت عدداً من رجالات تونس البارزين. ثم درس في جامعة السوربون في باريس، حيث حصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها.

كان ثاني وزير يتقلّد وزارة التربية في تونس بعد الاستقلال، ومكث فيها وقتاً طويلاً، أرسى فيه قواعد النهضة التعليمية العظيمة في تونس. بعد ذلك تولّى وزارة الثقافة، وآخر منصب قام به كان رئيساً للمجلس الوطني ـ البرلمان.

حين لقيته أول مرة عام ١٩٧٣، كان وزيراً للثقافة. ثم عرفته أكثر أيام عملي في باريس، فقد كان المسعدي حينئذٍ عضواً في المجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو. كنت ألقاه بصحبة الرجل العالِم الضّليع الدكتور عزّ الدين جلّوز، الذي كان مندوباً لتونس في المنظمة.

ما كان لي أن أزور تونس ولا أعرّج وأحيّي هذا العملاق من عمالقة الثقافة والأدب في دنيا العرب. ذهبت إليه مع صديقي محمد المصمودي صاحب دار الجنوب. وجدت داراً صغيرة غاية في البساطة في ضواحي العاصمة. دخلنا فإذا المسعديّ مشتملاً عباءة من وبر الجمال. كان اليوم بارداً في شهر شباط/ فبراير. رغم تقدمه في السن، وأنه كان معتلّ الصحة، فقد نشط في استقبالنا وفرح بقدومنا.

وجدناه يقرأ القرآن في مصحف أمامه، وحوله كتب مفتوحة من

بينها كتاب الأغاني. شرّق بنا في الحديث وغرّب بصوته العميق الأجش، وقال لنا إنه يعنى بمسألة جرس الآيات القرآنية وموسيقاها، ويتمنى لو وجد الوقت ليؤلف كتاباً في ذلك. صوته والبريق في عينيه ورنّة السخرية اللطيفة في حديثه، تنبئك أن هذا رجل حدّق طويلاً في مجاهل العقل والروح، وأبحر بعيداً في صُحبة العقول الجليلة في تراث الإنسانية.

كان محمد المصمودي في تلك الجلسة، يسبغ على المسعودي وُدّاً خاصاً، فيه معنى التقدير والاحترام، وأيضاً معنى حُبّ المريد لشيخه. لا عجب، فمحمد المصمودي، مثل صديقه وزميله محمد بن إسماعيل، رجل عميق الثقافة، عظيم التقدير للفكر وصُنّاعه، وهو ومحمد بن إسماعيل، يقومان منذ ثلاثين عاماً بخدمة الثقافة العربية بإخلاص وتفانٍ نادرين.

كانا من الشباب الذي خاض غمرات النّضال للتخلّص من الاستعمار الفرنسي. ولما استقلّت تونس تقلّدا مناصب رفيعة في الدولة. كان محمد بن إسماعيل من أوائل المدراء العامين للإذاعة التونسية. وشغل محمد المصمودي منصب المدير العام للصناعات التقليدية. إلّا أن نشر الكتب هو حبّهما الحقيقي، فانصرفا له بكل طاقتهما. وهما من الناشرين الذين لا يعتبرون النشر تجارة، ولكنهما يزاولانه بدافع الحب، وفي سبيل أهداف أسمى من مجرد الربح المادي.

لذلك فإنهما قد أصدرا في دار «سيرس» التي أنشأها أولاً محمد بن إسماعيل في أوائل الستينيات، مجلدات تُعد تحفاً فنية في طباعتها وإخراجها وصورها وألوانها. وهي تشمل مواضيع تهمّ القارىء

العادي كما تهم القارىء المتخصص، مثل العمارة الإسلامية وفن الزخرفة، وفي التاريخ والعلوم.

وأصدر محمد المصمودي في دار الجنوب سلسلة (عيون المعاصرة) التي يشرف عليها العالِم النابغة الدكتور توفيق بكار، أستاذ الأدب العربي في الجامعة التونسية. ومن الأعمال التي صدرت في هذه السلسلة، كتابا محمود المسعدي «السد» و«حدّث أبو هريرة قال»، ورواية «الياطر» لحنا مينا، و«المتشائل» لأميل حبيبي، ورواية عبد القادر بن الشيخ و«نصيبي من الأفق» وكتاب «النبي» لجبران خليل جبران، ومختارات شعرية لمحمود درويش ومختارات قصصية ليوسف إدريس ورواية الكاتب التونسي النابغة البشير خريف «الدقْلة في عراجينها». وكلّها كتب مطبوعة طباعة أنيقة، مع رسومات معبّرة، ولها مقدّمات، بعضها يعد أعمالاً إبداعية قائمة بذاتها. يقول الدكتور توفيق بكّار في مقدمته لرواية «السُّد» لمحمود المسعدي:

«لا يزال «السُّد» إلى اليوم يتيم دهره، نصاً وحيداً غريباً كأول عهده، ليس كمثله في أدبنا الحديث مغامرة، طلع علينا منذ سنين، وكل ما كتب الكاتب، بمفهوم الأدب، ليس له سابق، ولا كان له لاحق، مفهوم المأساة يستحيل معهم الفن صراعاً بين الخلق والعدم. فكان في الإبداع تجربة خارقة، ومن تناهيه فيها شبيهة بأشهر ما يعرف في الغرب من (تجاريب الحدود). تروم فيه الكتابة أن تتقصّى بالفكر أبعادها إلى مُنقَطعها من التخوم لتعلم ما معناها، آخر الأمر، في الوجود، فتمتحن في الخلق جدواها، حتى إذا بلغت منها إلى تلك المشارف النّائية ولم ترَ لذاتها من حقيقة سوى أنها بالية، ارتدّت إلى نفسها تتجرّد من سائر التّعلات التي بها تتذرع لتُقابِل عاريةً ـ إلّا من عشق الحياة ـ مماتَها. فلم يعد لديها من مبرّر

لوجودها إلّا يقينها بهلاكها، ولا عاد لها في الخلق من وازع، إلّا غلاب فنائها ثأراً للإنسان من عطب الزمان، وإشهاداً على توقه الحارق إلى الأبد المستحيل..».

ودّعناه عند الباب، أي عقل شامخ في ذلك الجسد الهشّ النحيل. جاوز الثمانين وبدأ يحس لذعة البرد. قلت له «إلى لقاء قريب، إن شاء الله». قال دون حزن وبلا أي مرارة «لعلك لا تجدني في المرة القادمة». أسأل الله له العافية وطول العمر، وأرجو أن أجده في المرة القادمة.

٢٥

الأعمال الأدبية المتفرّدة تُؤثّر في عقول الناس على مراحل. قد يلتفتون إليها، ثم ينصرفون عنها، ثم يعودون إليها. وقد تهملها أجيال كاملة. لكنها لا تضيع أبداً، ولعل هذا الزمان قد تهيأ لاستقبال «سدّ» المسعدي، هذا العمل العملاق، الذي ظل شاخصاً مثل الجبل يُغري بالتسلق، والنهر يُغري بالعبور، والبيداء تُغري بالسفر.

من حسن التوفيق أن الأخ محمد المصمودي صاحب «دار الجنوب»، وهو صديق محب للكاتب كما قلت، قد أعاد نشر «السّد» في سلسلة من «روائع المعاصرة»، مع مقدمة للعالِم النابغة الدكتور توفيق بكّار. وهي مقدمة بلغت من عمقها وسعتها ودقة إدراكها، أنها أصبحت عملاً إبداعياً قائماً بذاته. يقول الدكتور توفيق بكّار: «تلك تجربة «السّد» مغامرة الأقاصي، وناهيك بها من

تجربة لا يقوى عليها من الأدباء إلّا ذوو البأس روّاد الآفاق النائية. وقد خاضها بجمعه روحاً وقلباً وقالباً، بمعنى ما يحكي من الفكر ولفظ ما يُنشىء من الفن، أفنستغرب بعد هذا أن يظل منها في نوعه فريداً؟(...) ومن أطرف طرائفها أنها قد أقبلت في حقيقتها تختبرها من الداخل قبل الخارج طرداً وعكساً على نحو من الجدل الباطن ليس له هُفوت، فامتحنت نصّها على محكّ ما تقصّ وأخذت معنى ما تقوله في الحكاية بحكم الكيف الذي تقول به الحكاية، في مخاطرة بالذات شاملة تراهن فيها على كلها بكُلّها».

ما هو هذا «السّد» الذي أقامه محمود المسعدي على واد سحيق من أودية الخيال منذ خمسين عاماً؟

لا يسمّيه الكاتب «سَدّاً»، بفتح السين، ولكنه يسميه «سُدّاً» بالضم، فهل أراد أن ينبهنا أن هذا سدّ لا يشبه سدّ أسوان وسدّ الفرات وسدّ النيل عند سنّار، ولا حتى سدّ مأرب؟ ويسمي الكاتب عمله (رواية) وما هو بالرواية بالمعنى المعروف، إنما بُني على التشخيص والحوار فكأنه صُنع ليمثَّل على المسرح، إلّا أنه لم يجد حتى الآن مخرجاً جرؤ على تقديمه على المسرح. وهو نثر كالشعر، وشعر كالنثر وفن كالفكر وفكر كالفن، فهل هو لون جديد ما عرفه شرق ولا غرب.

يقول الدكتور طه حسين:

«وكاتبنا يبدأ بإنشاء بيئة شعرية خالصة، لا تكاد تُقبل عليها حتى ترى نفسك في عالم من الخيال غريب لا عهد لنا بمثله في الأدب العربي إلّا أحياناً قليلة حين يرمز الفلاسفة إلى بعض ما يريدون تصويره من ألوان الحكمة، فيتصورون إنساناً فرداً قد وُجد وحيداً

في جزيرة خالية فاستكشف وحده العلم والحكمة كما فعل ابن سينا في المشرق وابن طفيل في الغرب. أو حين يرمزون إلى ما يكون بين الإنسان والحيوان من استئناس وتذليل أو من ثورة وعصيان كما فعل إخوان الصفا في بعض رسائلهم.

ولكن كاتبنا على ذلك خصب الخيال نافذ العقل غنيّ اللغة، يشيع الحياة والعقل والمنطق في الجبل وصخوره وحيوانه المستأنس والمستوحش، ويشيع الحياة كذلك في الجو بما يبتكر به من هذه الهواتف التي تتحدّث بين حين وحين إلى الإنسان والحيوان والجبال بما يريد الكاتب أن تتحدّث به إلى هؤلاء جميعاً. وأشخاص القصة عجب من العجب (...)».

بطل الرواية رجل سمّاه الكاتب (غيلان)، ولا أظنه فعل ذلك اعتباطاً، ثم وصفه أنه (كائن زائف) فماذا أراد من ذلك، ونحن نعلم أن شخوص الرواية كلها كائنات زائفة، جاءت من خيال الكاتب؟ وامرأته (ميمونة) ثم بغلٌ وذئب وأطياف وهواتف، وسدّ ما يلبث أن يبنى حتى ينهار.

لنستمع إلى محمود المسعدي يقول على لسان بطل قصته ـ على لسان (غيلان):

«أقول إن أهل هذا الوادي قد سرقوا للوهاد سرابها ولبسوا هزالهم كما تُلبس الخلعُ السلطانية، واتخذوا لساناً كثيراً كألسنة السّعالي، وخشعوا وقالوا: العطش والقحط، ولْينْتف الماء. يحسبون أنهم وحدهم يقاسون الظمأ واليبْس والقحط، ويحبّونها ويتخّذون أرواحهم منها. ولكني أنا أيضاً أحبها وأقاسيها.. وإنما هم قوم

أفعمت نفوسهم مياه كاذبة، ورطوبة كاذبة، وسماء كاذبة. وإن نفوسهم لنفوس باطلة الكيان كاذبة، فرّوا من الفعل عجزاً وبطلان نفس. بل انظري هذه العين البديعة تنفجر عن جنب الجبل، كيف تركوها منذ آلاف السنين تذهب فتفور مياهها وحياتها في الهاوية بمُنْقَطع الوادي. ولم يخطر لهم ببال أن يقيموا سداً فوق الهاوية، فيحبسوا ماء العين ومياه المطر والجبل وإنّي لأرى سدّي بين يديَّ وأرى المجاري، وأرى الأنابيب ممتدة فوق الهاوية جسراً حديداً يهْزأ من الهاوية متدافعاً إلى الوهاد.

وإني لأرى المياه متدفقة غالبة قاهرة، تتدافعَ إليك تدافع المُتمنّي يزفُّ إليك بنفسه. وليكُن الخلقُ ولتكثر الولادة. هذه الأرض المتجعّدة المغْبار كالعجوز الفاجرة، لأحبلنّها ماء، فأملأنّ بطنها، فأخرجنّ حياة. وسترينّها يا ميمونة يومئذٍ، وسترينّهم معرضين عن الشمس والقحط، ينبذونها في العراء. وسترين الجارية يومئذٍ تتبرج للماء، ويشملها الماء ولا تنْفتح للشمس وسترينّهم يطرحون شمسهم في مياه السدّ الغامرة الهادئة...» تذكّرْ أن المسعدي كتب هذا، وهو في أوائل الثلاثينيات من عمره، ويعيش في باريس في حَمْأة العالم (الفاوستي)، يرى من عنفوانه التكنولوجي، ويوازن بينه وبين عالم (الطمأنينة والقبول) الذي قدم منه. يقول الأستاذ محجوب بن ميلاد في ذلك، وقد كان أستاذاً في الجامعة التونسية حين كتب هذا:

«عَوْرة نفس (غيلان) هي عورة الإنسانية قاطبة وعجزه هو عجزها، وبطلان مساعيه هو بطلان الحياة وحماقة الحياة العابثة... إذ ذاك تفهم خيبة «السّد» وتفهم أنه رمز لجهاد الإنسانية قاطبة ورمز لخيباتها المتوالية رغم أنها لا تنفك تعمل وتجهد لغلاب العدم والانتصار على الفناء. وتفهم أن الإنسانية ـ في نظر المؤلف ـ حين

يختمر في مهجتها (الحلم) وتأبى إلّا أن تندفع لتحقيقه، وحين يتربع في وجهها السراب وتأبى إلّا أن تجعل من السراب ماءً ثجّاجاً، إنما هي عمياء لا تبصر أن مساعيها باطلة، واضطرابها عقيم، واندفاعاتها خاسرة ورجاءها في الخلود غرور وسذاجة مضحكة...».

ويرى الأستاذ الشاذلي القليبي، الذي كان هو أيضاً يومئذٍ أستاذاً في الجامعة التونسية، أن (غيلان) كان يعلم أن مآل مغامرته إلى الخسران، ولكنه رغم ذلك، لم يجد بُداً من المضي قدُماً، ويقول:

«وليست هذه الثورة منبعثة عن إلحاد وتعطيل، بل هي ثورة على الخطوط الجامدة والمرمر الصلب الذي يخنق القوى الفردية ويزيف الوجود. التوق إلى المطلق هو جوهر هذه الثورة الفتيَّة. ومعناها الصحيح تحطيم السدود، ونزع الأعراض، والتجاوز نحو المستحيل».

مهما يكن، فإن الكاتب قد ابتدع في مواجهة (غيلان) شخصاً ينتمي إلى (عالم الحلم العربي) كما وصف الفيلسوف الألماني (شبنجلر). تلكم هي (ميمونة) زوج (غيلان)، إنها تومىء إلى عالم القناعة والرضى والاستسلام. تبدو لأول وهلة وكأنها ترمز إلى العجز والخنوع. إلّا أن الكاتب قد وضع على لسانها حُججاً لا تقل قوة عن حجج (غيلان)، فإذا هي كأنها تحسّ بحكمة أعمق مما رأى (غيلان). تقول (ميمونة):

«نعم، لقد رأيت صباح اليوم العمال والبنّائين، وقد جُنّوا في هذا الوادي وادي الجنون. وسمعتهم يقولون: لن نرفع بعد الساعة صخراً. ولن نبني ولن نقيم سداً. ولا نحتمل اللعنة والنقمة... فلما قالوا وصاحوا صياح السباع تضري، وهزّتْهم ريح هوجاء تدوي،

وصاحبتهم ضوضاء هوْل إلى الأفق، وتصاعد الغبار فوق الطريق فقصَّ فرارهم، وخلونا أنا وأنت وخلا الوادي ـ نظرت فرأيت كل شيء حولك يُسْلم ويذعن. رأيت الصخور طريحة تقول: لا جهاد. أسْلم. والسدّ أبْترَ يقول: لا جهد ولا جهاد. أَذْعن. والدنيا كلها بسكوتها وانفلاقها على صياح العمال والبنائين وهدوئها بعد هزة الثورة تقول: لا جهد ولا جهاد... لا جهد ولا جهاد... ورأيتك قائماً وحدَك ممسكاً يدك الحريقة، وقد عاندت واستكبرت وأبيت، وأنكرت الهزيمة. ونفيْت الانكسار، وصرفت خفقة القلب وأمسكت دمعة العين، ولم يُسمع لك توجُّع ولا شكوى تبوح بحياة ورقّة أو باقي حياة ورِقّة. ومكثت شاحب اللون، متقلب الصورة، صلب الجسم كالتمثال، يقع فينكسر فلا يألم ولا يفرح (...).

كذا الزّائفات كلها يا غيلان. ولقد رأيتك زائفاً كغول الصّبيان، أو كالطفل الخَفِر الباهت يسلك طريق الذّئب، ثم يقف في بعض طريقه مبهوتاً ينظر ما وراءه من براءة فاتت، وما أمامه من شجرة حرام تُغويه وعقاب أليم يخافه. فينهدّ عزمه، ويجمد، فيقف دون غايته وقد حاد عن نفسه وضلَّ الطريق وشُلّت يداه وضاع رشده...».

٢٦

التفت الدكتور توفيق بكّار في مقدمته العميقة لكتاب «السّد» لمحمود المسعدي، إلى مرمى بعيد من مرامي الأدب العظيم. ذلك أن من بعض سمات العمل الأدبي الكبير، أنه ينشىء حواراً داخلياً مع نفسه، وبينه وبين الأعمال الأدبية الأخرى في تراث العالم. في ذلك عزاء للكاتب يسريه عن وحشة العالم المُتخيل الذي يسكنه، وهو أمر لا مناص منه. وفيه متعة إضافية للقارىء الحصيف إذ تتبين له معابثات الكاتب وألغازه وإشاراته. يقول توفيق بكّار:

«يلعب هذا الكتاب لو نعلم، لعباً مع نفسه خفيّاً قصيّاً ساخراً هو بلا مراء من سرّ فتنته. فبعضه مرآة لبعضه ماكرة ترجّع إليه صورته في كل مرة معكوسة المعالم فلا هو هو ولا هو غيره، بل الشيء وضده يتناوبان غدوّاً ورواحاً. وهذا في الأصل شيء من ذات الأدب، إذ لتآليفه بالكيان من دالّها ومدلولها وجهان يرد أحدهما

إلى الآخر، أو يرد عليه، بلا ابتداء ولا انتهاء، ولا أول ولا ثان. هما الشكل والمعنى في حوارهما جيئة وذهاباً، يتداعيان فيتجاوبان وقد يتفقان أو يفترقان فيكون اللّحام والوحدة أو الفصام والغربة باختلاف غرض الكتاب في ما يؤلفون. والكلام طبعاً على كبارهم لا على الصغار، فهؤلاء يفكرون في ما يقولون وأولئك لا يعلمون ما يفعلون. ومزية السّد، وكاتبه من أكبر الكبار، أنه قد مضى في هذا الأمر إلى منتهاه، فجعله تقلُّباً متهكّما بين حقيقة وبطلان، يتبادلان الموقع على الدوام من طرف إلى طرف، فإذا قفا الوجه وجه قفاه، وهكذا دواليك في حلقة مقفلة، فيدور الكتاب على محوره هازئاً نصفه بنصفه ينفيه ويثبته، ويهدّه ويشدّه في جدل لا ينتهي من السلب والإيجاب».

هذا (اللّعب) أصبح اليوم مذهباً عريضاً في الأدب، تجده واضحاً عند الكاتب الألماني (هيرمان هسّه) في روايته الكبيرة «لعبة البلورات الزجاجية». ثم هذه الأيام في أعمال الكاتب الإيطالي (أمبرتو إيكو). يبدو لأول وهلة كما لو أن العمل الأدبي لا يهدف إلى كثير من إذكاء المتعة الذهنية، كما يجد لاعب الشطرنج الماهر من ملاعبة شخص لا يقل عنه مهارة.

لم يكن ذلك غريباً على العرب، فقد عرفوا هذا اللون وتفننوا فيه، ولعل (المقامات) من بعض وجوهها ضرب من هذا (اللّعب). وأوضح ما يكون ذلك في الشعر، عند أبي العلاء المعري في لزومياته وفي سقط الزند وفي رسالة الغفران.

الكاتب من هؤلاء، حين يلتفت إلى أعمال من سبقوه أو إلى أعمال معاصريه، لا يكون مقلّداً، ولكنه يكون كالموسيقي الذي يدخل

(تنويعات) على ألحان غيره.

هذا، وقد ظن الدكتور طه حسين، في مقالته عن «السّد» أن المسعدي قد تأثر بالكاتب الفرنسي الوجودي (ألبير كامو) صاحب رواية «اللامنتمي» الشهيرة، وقال:

«... هذا الأديب التونسي قد تثقف بالأدب العربي كأحسن ما تكون الثقافة. ثم أتمّ دراسته في فرنسا فأتقن العلم بالأدب الفرنسي كل الإتقان وتأثر فيها بكاتب مفلسف معروف هو (ألبير كامو) (...) له مذهب فلسفي معروف نشأ عن الوجوديّة، وهو يقوم على أن من العبث أن نحاول فهم الحياة الإنسانية، فليس لهذه الحياة غاية معروفة يمكن الوصول إليها أو حكمة قريبة يمكن استكشافها، وإنما هي عبث من العبث...).

يرد المسعدي على هذا الرأي بقوله:

«... ولعل العيون التي وردتها من الأدب الفرنسي قبل تأليف روايتي ـ فيما بين سنتي ١٩٣٣ و١٩٣٩ خاصة ـ هي العيون نفسها التي استقى منها (كامو)... إلى جانب كتّاب آخرين مثل شيكسبير.. وديستويفسكي.. وأبسن.. إلى جانب كل الذين غذّوا ثقافتي من أفذاذ الأدب العربي الإسلامي مثل أبي العلاء المعري وأبي حيّان التوحيدي وأبي حامد الغزالي وعمر الخيّام (...) الذي أعلم هو أني لم أر في تجربة (غيلان) تجربة الحياة الباطلة تؤول إلى عبث مرير، ولا في جهود (غيلان) جهود الحي لا تنطوي على حكمة ولا ترمي إلى غاية. الذي أردت حمل (غيلان) وحمل (ميمونه) عليه، هو أن يشخّصا بدمهما ولحمهما ومأساتهما هذا الفهم الخاص الذي

أحسبه شرقياً إسلامياً لماهية الإنسان ومنزلة الإنسان وقدرة الإنسان وشرف الإنسان من حيث هو إنسان...».

إنها اللغة. لغة المسعدي هي التي وسمت عمله هذا، وسائر أعماله، بميْسم عربي إسلامي لا ريب فيه، مهما كانت المنابع التي استقى منها. وما أجمل قول الدكتور توفيق بكار في وصف لغة المسعدي:

«عُتّقت من شدة الفصاحة حتى كأنها بلاغة القدماء، بل الأقدمين، قد عادت إلينا بكنوز أهملناها من أفانين البيان ـ ذخائر من اللفظ الأصيل، وثروة من تصاريف الأفعال والأسماء، وأشكال من النظم الوثيق كالبنيان المرصوص. وناهيك منها بفتنة الحروف تختصر الكلام اختصاراً فتُغني عن كل فضول. لغة أثيلة تنطق بملئها من إمكانات نظامها وكل ما ادخرت على مرّ القرون من أقوال المبدعين (...) وإلى تالدها هذا أضاف الكاتب من روح العصر وثقافة الغير طارفاً. فما هو بالمقلّد، بل مولِّدٌ، يخترع ولا يحاكي. فجال بالعربية في ما لم يكن لها به عهد من مجالات الفكر، وقوّلها ما لم يسبق لها أن قالت. وانصبّ الرّافد الوافد من لُباب عقل الغربيين في بحر مأثورنا من الفكر، وفيه اندمج اندماجاً حتى كأن الدّخيل أصيل. (...) فالتقت ثقافة بثقافة ولم يعد بينهما شرق ولا غرب، بل الإنسان واحداً شاملاً يتساءل ويألم ويصارع بلسان عربي مبين...».

٢٧

دخل قاعة الطعام رجل وامرأة. الرجل (أبيض) لكنني قدّرت أنه ليس أوروبياً، فقد كان بياضه مثل الثوب المستَعار. المرأة سمراء، واضحة السُّمرة كأنها من اليمن، أو حتى من نواحي (الجزيرة) في السودان. جلسا في الركن جنْب السيدة الأمريكية وبادراها بالتحيّة، فتحوّلتْ إليهما فوراً. باعثْني واشترتهما. ابتسمتُ بيني وبين نفسي وحمدتُ الله وقلت هذا من بركات (الأستاذ). لا بدّ أن صوته العربي المحض، قد وصل إليها بطريقة ما، كما ينتقل تيار الكهرباء، فأزعجها وصرفها عني.

سألتْهما من أين هما، فأجابها الرجل بالفرنسية أنهما من لبنان. انتهبتُ كما جرى لأخينا ذاك بالخَيْف من منى. انطلقوا يتحدّثون الأمريكية، كالذي يطرب لصوته بلا مبرر، والرجل يتحدث فرنسية حسنة، تملؤه نشوة، كما تفعل اللغة الفرنسية بمن يحسنونها. والمرأة

السمراء، زوجته، صامتة، تستمع وتبتسم. فجأة قالت الأمريكية:

«لكن اللبنانيين عرب، لغتهم العربية، أليس كذلك؟».

أجابها الرجل بتهوّر أدهشني، ربما بتأثير اللغة الفرنسية التي لا بدّ أنها أدارت رأسه:

«ليس كل اللبنانيين يتحدثون العربية. نحن نعتبر لغتنا الأولى، هي الفرنسية، نتخاطب بها في بيتنا حتى مع أطفالنا. نحن لسنا عرباً. إننا نكره العرب. العرب خرّبوا بلادنا...».

نظرتْ إليَّ المرأة الأمريكية نظرة مُباغتة، ووسوستْ لهما. حدقني الرجل حال من أخذته العزّةُ بالإثم، وبدا الحرج والارتباك على زوجته. وكنتُ أكثر منها حرجاً، كأنني رأيت شيئاً لا تجوز لي رؤيتُه.

بعد ذلك راحوا يتهامسون، والمرأة الأمريكية تلتفت إليَّ من وقت إلى آخر، وقد تأكد لي صدق حدْسي أول الأمر. أعجبها الدور الغامض الذي هيّأتْه لها الظروف كأنها رسول من رُسل الـ (باكس أمريكانا) وكأنهم في معسكر، وأنا في معسكر مضاد.

قلت يا سبحان الله! هل جئت إلى باريس لأُحامي عن بيضة العروبة؟ وهل أنا إلّا عربي من الأطراف؟ وقد لا يكون بلغهم بعد، أنني مثلهم من (غزيّه) بمُنعرَج اللّوى! وهل العروبة اليوم إلّا مثل (بنك) ظنّ الناس أنه يوشك أن يفلس، فأخذوا يسحبون أرصدتهم منه؟ وأين يذهبون؟ كل دولة مشغولة بهمومها، ولا عاصم لهم.

قررتُ أن أُريحهم، فقلت للرجل باللغة العربية، وأنا أكظم غيظاً ملأني به شعر (الأستاذ):

«أنتو من وين في لبنان؟».
«تعرف لبنان مليح؟».
«نعم».
«من الشوف».

قلت له وأنا أفكّر في العرب النّصارى الذين حاربوا مع المسلمين في معركة اليرموك:

«أهل الشوف من أعرب العرب».

«لا يا عمي. نحن ما بدنا في العرب. العرب خربوا بيوتنا. ما لقينا منهم غير المصائب...».

صحيح أن العرب يخرّبون بيوتهم بأيديهم أحياناً. ولا بد أن المرارة التي انتابت هذا الرجل الفاضل، لها مبرّراتها. لا بد أن الحرب أصابته برشاشها. لعلّهم هدموا بيته، وقتلوا له عزيزاً أو أكثر، ومدّخراته في البنك ضاعت بسبب انهيار الليرة. ولعلّه نجا بأهله فوجد ملاذاً وأمناً في فرنسا. فمن يلومه إذا أحب فرنسا؟

من حسن الحظ أنني عرفت لبنان، وأحببته وأعلم أنه حقّاً معقلٌ من معاقل العروبة ـ على علاّتها. ولو كانت العروبة ثوباً تلبسه وتخلعه أنّى شئت، لجاز لك. ولكنها قدرٌ وانتماء. وما أروع الانتماء على الشدّة والبؤس! أنت عربيّ حتى لو هدّموا دارك، وقتلوا أبناءك،

وأضاعوا مدخرات عمرك. حتى إذا لم يبلغهم بعد أنك منهم وقد شهدت الوغى معهم بمُنعرَج اللوى، وما أحسن ما قال أبو الطيب:

أنا في أمّة تداركها اللهُ غريبٌ

غريبٌ، نعم، ولكنه (في الأمّة)، وليس بمعزل عنها.

الملك شاكا الأكبر، ملك الزولو، الذي تغنّى به (ماسيسي كونيني) في ملحمته الشعرية البديعة، فيه ملامح من عنترة بن شداد العبسي، في نشأته وعلاقته بأبيه، ثم صعود نجمه كفارس صنديد مدافع عن حمى قومه. وفيه أيضاً لمحات من العبقرية العسكرية، في أنه ابتكر أساليب جديدة في القتال. لذلك يجد المتأمل في حياة شاكا ونظام حكمه، وجوه شبه بمحمد علي باشا، في أنه وحّد شعب الزولو وجعل منه أمة متماسكة ذات طموحات سياسية جريئة، وقوة عسكرية منظمة قادرة على إنجاز تلك الطموحات.

وليست هذه المقارنة بعيدة كما قد يبدو لأول وهلة، إذ إن النظام القبلي عند الزولو، بل عند أغلب القبائل الأفريقية، لا يبعد كثيراً عن نظام القبائل العربية، وخاصة قبل الإسلام.

هذا، ويرجع (دونالد مورسْ Donald Morris) في كتابه الشهير «غسيل الرماح» الذي يقصّ فيه قصة نهضة أمة الزولو وانحدارها، أن قبائل الـ (بانْتو) التي ينتمي إليها شعب الزولو، ذات أصول عربية، ويقول:

«... أغلب الظن أنهم نزحوا إلى أفريقيا عن طريق الهلال الخصيب قبل عشرة آلاف عام (...) ويبدو أنهم ساروا على النيل حتى دخلوا السودان. ثم اختفوا عن مسرح الأحداث آلاف السنين. لكنهم ما إن اجتازوا الصحراء، وانبثّوا جنوباً وغرباً، حتى أصبحت القارة الأفريقية بأكملها مفتوحة أمامهم (...) لم تربطهم روابط متينة بشعوب القرن الأفريقي، ولكنهم نفذوا خلالها. وقد احتفظت لغاتهم ونظمهم الاجتماعية، بمؤثرات من العالم العربي».

هذه، كما ترى، نظرية تقلب الموازين التاريخية رأساً على عقب، وتضفي معنى جديداً لصلة الجزيرة العربية بالقارة الأفريقية، وتعطي مفاتيح لبعض الألغاز، مثل أصل الفراعنة في مصر، وشعب النوبة في شمال السودان، والبربر في بلاد المغرب العربي.

كذلك تعطي مذاقاً آخر، لعبارة نلسون مانديلا في نيويورك (ياسر عرفات أخي) وعبارة ماسيسي كونيني في جامعة براون (العرب إخواننا). ندرك فجأة، ربما ببعض الدهشة، أن هذا قول لم يصدر بدافع المجاملة أو التحدي، وإنما صدر عن وعي مهما كان بعيداً، بصلة الرحم التي تربط العرب بالشعوب الأفريقية، التي أُطلق عليها صفة (الزّنج).

يا للعجب، إن قبائل الـ (بانتو) السوداء، جاءت عن طريق الهلال

الخصيب، أي عن طريق بلاد الشام! ويا لها من لعبة حاذقة من ألاعيب التاريخ، أن يكون الشاعر الزنجي (ماسيسي كونيني) صاحب (قصائد زوليّة) هو ابن عم الشاعر الفينيقي (الأبيض) صاحب (قدموس) و(رَنْدلَى)!

ولد (شاكا) عام ١٧٩٥، وكان ثمرة غرام حرام، بين «سنْزانْخونا» ملك الزولو، والأميرة (نَاندي) ابنة ملك قبيلة (أيلا نْقيني) المجاورة للزولو، وترتبط معها بروابط المصاهرة والقرابة. وكان من عاداتهم أن يسمحوا بالملاعبة بين الفتيان والفتيات، شرط ألّا يتجاوز الحدود، ولا يخلّ بالأعراف.. يسمون ذلك (أُكوهُلُبُنْقا) أي (مُتعة الطريق). ولكن (سنْزانْخونا) ذهب أبعد مما يجب، فحبلت (ناندي). أغضب ذلك بطبيعة الحال، حكماء قبيلة (أيلا نقيني) الذين أحسّوا أن شرفهم قد أهدر، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً، فقد كانت قبيلة الزولو أقوى منهم. اكتفوا أن أرسلوا إلى حكماء قبيلة الزولو، يلتمسون منهم، أن يتزوج (سنْزانْخونا) ابنتهم (ناندي) ويعترف بأبوّة الجنين الذي تحمله. إنما هؤلاء ردّوا عليهم، أن الحمل حملٌ كاذب، وهو ليس أكثر من (أيشَاكا) أي (انتفاخ في البطن).

لذلك حين وُلد الغلام، سار عليه لقب (شاكا) وقد يجد الباحث صلة بين الكلمة، وكلمة (إسحاق)، ومسلمو نيجيريا وغرب أفريقيا ينطقون الاسم (أُيساكا).

قبِل (سنْزانْخونا) آخر الأمر، أن يتزوج (ناندي) ويضمها إلى حريمه. وكانت امرأة جميلة، سليطة اللسان، صعبة المراس، فلم تستقر معه، فأعادها إلى قومها، ومعها ابنها وابنتها التي وُلدت بعد الزواج.

يصف (ماسيسي كونيني) في ملحمته الشعرية، لقاء (سِنْزانْخونا) بـ (نانديي) هكذا:

سنْزانْخونا ابن جاما الملقب بمُلاعب الرّماح
رأى العذراء الفاتنة الأميرة نانديي.
حدّث نفسه قائلاً «سوف يلهج لساني
بجمال هذه الفتاة الشرسة».
سكنت في قلبه، نانديي، ابنة بهْبهي.
حين تخطو، تهتزّ الأرض تحت قدميها،
ذات هيبة لا يصمد لها إلّا الأقوياء..
تغنّى بها الشعراء في مجالس الملوك،
قالوا إنها امرأة قوية الحجة
كأن لها ألسنة عدة،
تتصدى للكبراء في منتدياتهم،
ولا تخشى أحداً.
تقف وتصرخ متحدّية:
«أنا ابنة الأمير، سيّد عشيرة لانقيني»
اتّهمها بعض الناس أنها مسكونة
بروح شرّيرة.
نظرت غاضبة إلى الفتى العاشق،
وبصقت في وجهه، وعيناها تتوقدان
مثل الجمر.
سحره جمالها حين رآها، ابنة بهبهي.
ارتعش بحمّى الرغبة، وتمتم بالكلمات.
أحسّ بها مثل نار كاسحة،
نار جائعة التهمت كل النيران.

خفق قلبه مثل حلق ضفدعة مذعورة،
وقال لها بصوت مرتعش
«أيتها المرأة العنيدة
لا أستطيع أن آذن لك
ومن معك أن تطأوا دياري
ولكن دعيني أضع حجارة في الماء
تعبرون عليها، وتنصرفون بسلام».
حدّثت نباندي نفسها قائلة:
«إنني قد وجدت توأم روحي».
قالت لـ (سنْزانْخونا):
«إنك فتى تافه،
أفسدك بمعسول الكلام،
المنافقون الذين لم يروا منك إلّا جانباً واحداً
لم يروا الفساد الذي يكمن في جسدك».
كأنها غرست في صدر فارس الزولو خنجراً
وظهر الألم على وجهه،
حتى أن ناندي نفسها
أحست بالحزن.
قالت تريد أن تسرّيَ عنه
«سامحني أيها الغريب
اغفر لي حدّة لساني
أجرح به، وأبكي شفقة على الضحية».
ومع كلماتها مدت إليه يداً حانية
ونثرت البذور من عينيها الجميلتين
فالتقط سنْزانْخونا الدفء من
رسائل قلبها

والتأمت جراحه
واندسّا في طيات الغاب
وتماسكا تحت غطاء الشجر الكثيف
وتحابّا كأنهما يحتفلان بآخر يوم لهما
على الأرض(*).

(*) الترجمة عن الأصل الإنجليزي للمؤلف.

أبو الملك (شاكا) هو (سنْزانْخونا) ابن (جاما) ابن (زولو) ابن (مانديلا) الكبير، الذي استقل في القرن السابع عشر بفخذ صغير من عشيرة الـ (أنْقوني) المنحدرة من قبيلة الـ (بانتو) الكبرى. واسم (زولو) يعني (السماء)، وقد عمَّ على القبيلة كلها، فأصبح اسمها (آما زولو) أي (أُمةُ الزولو).

كانت قبيلةً مُستضعفة، لا يؤبه لها حين تولّى أمرها (سنزانخونا)، لا يزيد عددها عن ألفي إنسان، تعيش في أكناف قبيلة (مطَطْوا) الكبيرة، وتجاور قبيلة صغيرة مثلها، هي قبيلة (أيلانْقيني)، خؤولة (شاكا) وأبيه.

رفع (سنزانخونا) من شأن الزولو، فأصبحوا شوكة في جنب قبيلة الـ (مططوا) بقيادة ملكها الحكيم (دنْقزْوايو)، الذي لجأ إليه (شاكا)

فيما بعد، خلال تنقُّله بين القبائل، هو وأُمه. وقد تعلّم (شاكا) أموراً كثيرة من (دنقزوايو)، ولكنه حين أصبح ملكاً على الزولو، اتبع سياسة مخالفة تماماً لما رآه من (دنْقزْوايو).

عادت (ناندي) إلى قبيلتها، تحمل طفلها الذي سوف يكون له شأن، فلم يستقبلوها بالترحاب، لأنها أخلّت بالأعراف، ودنّست شرف القبيلة، فعاشت بينهم في فاقة وبؤس. ونشأ (شاكا) منبوذاً محقّراً. ظل كذلك إلى أن بلغ سن الخامسة عشرة، يرعى البقر والغنم، وتنهش قلبه كراهية مريرة لقبيلة أبيه وقبيلة أمه، ويحس أن له حقاً مسلوباً في زعامة الزّولو لا بد من أن يستردّه. وكانت أمه (ناندي) تذكي جذوة حقده وطموحه.

وفي نحو عام ١٨٠٢، حلّت بالبلاد مجاعة عضوض، ورأت قبيلة (أيلانقيني) عشيرة (ناندي)، أنها لا تستطيع أن تطعمها وأبناءها، فطردتهم وهاموا على وجوههم بين القبائل. أحدث هذا جرحاً عميقاً في نفس (شاكا) الذي انتقم فيما بعد من قبيلة أمه، فبطش بهم بطشاً لا رحمة فيه.

وجدت (ناندي) عطفاً لدى رجل من قبيلة صغيرة يدعى (قِنْديانا) كانت قد عرفته من قبل، وولدت منه ابناً سوف يكون له دور في ظل أخيه حين يرث ملك (سنزانخونا). هنالك كبر (شاكا) فصار فتى فارع الطول، قوي العضلات. وكان محارباً بالغ الشراسة، شديد المكر، فبدأت تتكون له أسطورة بطولية، وأخذت شهرته تتّسع بين القبائل. وقد ازدادت شهرته حين انضم إلى خدمة (دنْقزْوايو) الحكيم، رئيس قبيلة الـ (مططوا) الكبيرة، فكان يرعى ماشيته، ويحارب في جيشه، ويراقب أسلوبه في تصريف شؤون

الحكم، باهتمام عظيم، وعقل بارد.

سمع (سنزانخونا) بشهرة ابنه، وأراد أن بضمّهُ إلى عسكره، فرفض، إذ إنه كان يعلم أن أباه لن يستخلفه، وأنه قد اختار وريثه الشرعي. ورغبت عشيرة أمه أيضاً أن تستغل مهارته في الحرب، فأبى، لما كان يضمر لهم من احتقار وكره. ولكنه حين بلغ مبلغ الرجال، اضطر أن يذهب إلى أبيه، ليكرسه، حسب الطقوس القبلية القديمة.

يصف (ماسيسي كونيني) كل هذا في ملحمته الشعرية، فيقول:

اللّيالي الجميلة تزدحم بالنجوم
الّتي يا ما تفضح خناجر الغدر،
وتضجّ بوسوسات الحقد
كان (شاكا) ولد (ناندي) يرهف سمعه
لألسنة اللّيالي الطوال.
كلمات الشامتين تجرح روحه اليانعة كالسياط
وعيونهم تحرقه مثل لهيب النار.
لا شفقة حتّى عند النساء العجائز
اللاّئي يقلن حين يرينه
«أهذا ابن السّفاح الذي
ولدته (ناندي) العاهرة؟».
يقلن هذا وعيونهن تتوقّد بالشر.
ويقلن أيضاً وهن يتصنّعن الهمس،
«أهذا هو إذاً؟ الفتى الشقيّ الأرعن؟».
لكن قلب (شاكا) كان جريئاً كقلب نمر،
فلم يطأطىء رأسه أبداً.

كان مَرْآه يبث في قلوبهم الرّعب،
حتى الكبراء الذين كستهم الشيخوخة هيبة
كانوا يفرُّون من وجهه
ولأنه ولد في برج الجبل، يقول
«أنا الثور الفحل، لا تهزمني صغار العجول».
يجلس بينهم، يكظُّ أسنانه من الغضب
يتلبّسه روح الثور المحارب
وعقلهُ المستعر، يُطفيءُ العقول الأكثر منه تجربة
يعجب به البعض لأجل ذلك،
وله أصدقاء، يمشون في الدّروب المخيفة

يقولون:
«قلبُه حجرٌ تسكنه الأفاعي،
كهفٌ تحاك فيها الخطط لمحق أعدائه.
يجلس وحده هنالك، على حجر هو رفيقه الوحيد،
لا يسمع النّصح، ولا يقبل الصّلح، ولا يعبأ بأحد.
كل صباح يزيده حقداً
ويزيده تصميماً على الانتقام من عشيرته الأقربين».
دموع الحيوان سرعان ما تجفّ
ولكن دموع الإنسان، لها أقدام وأيد وشفاه.
الّذين.. يحمدون أباه عنده
ينكأون جرحه الطّري، ويطردون الكرى من عيون اللّيل.
وأمه (نانديي) تقول له بلسان ريح الشتاء:
«صبراً يا ولدي! غداً سوف تُقتلع الأشجار من جذورها».
وهكذا كبُر، فارغ الطول، عملاق الجسم، بعيد الصّيت:
وحين آن أوان الاحتفال ببلوغ سن الرّجولة،

قالوا «لا بد أن يذهب الآن إلى أبيه المستهتر
فهو وحده الذي يمنحه ثوب الشباب».
فأسرع ولدُ (سنزانخونا) إلى أبيه،
وخاطبه بجنان ثابت، ولسان لا يتلعثم،
قال له «إنني جئت آخذ منك ثوب شبابي».
رشقه أبوه بنظرة غاضبة، وقد أزعجته وقاحته،
إنما لم يجد بُدّاً من الاستجابة
لطلب الفتى الّذي لا يعبأ بأحد
فأمر بثور يذبح للاحتفال
وكان (شاكا) من غيظه يبرطم بكلام لا يُفهم.
في تلك اللّيلة، ليلة الاحتفال،
زاره أجداده في المنام،

حدّثوه، وقالوا له:

«سيأتي يومٌ، تصل فيه شهرتك إلى النجوم،
وسوف يمتدّ ظلّك فيغطّي أمماً وراء أُمم،
وسوف تلهج شعوب الأرض كلّها بذكرك،
وسوف تعنو لك جباه الأبطال من كل جنس،
وسوف يطأطئون الرؤوس لجبروتك،
إلى أن تغرق الشمس في الظلام السّرمدي».

كان عدد قبيلة الـ (مَططْوا) في مطلع القرن التاسع عشر، نحو أربعة آلاف، يقطنون على الساحل الشرقي جنوبي القارة، بالقرب من نهر (أمْفلوزي). وكان زعيمهم (جوب) قد طعن في السن، وطالت مدة حكمه، فدبر ابنه الأكبر (تانا) لقتله، بمساعدة أخيه (قدُ نْقوانا).

كان (جوب) رغم كبر سنّه، داهية يقظاً، فعلم بالمؤامرة، وهبَّ من حينه للقضاء عليها. قُتل الابن الأكبر (تانا) وهرب الابن الآخر (قدُ نْقوانا) وفي ظهره رمحٌ طُعن به. لجأ إلى أخت له لكنه لم يطمئن إلى الإقامة طويلاً في أرض الـ (مططوا)، ففر إلى بلاد قبيلة (هُلوبي) في سفح جبال (دراكنْسبيرج) ناحية الغرب. وحتى لا تنكشف حقيقته، أسمى نفسه (دِنْقزْوايو) أي (الذي أضناه الهم).

لم يمكث طويلاً بين الـ (هلوبي) حتى بلغه نبأ وفاة أبيه، فأسرع

عائداً إلى بلاد الـ (مططوا)، فوجد أن أخاً له قد سبقه إلى انتزاع الزعامة. وكان (دِنْقِزْوايو) قد حصل على بندقية من رجل أوروبي صادفه، وهو سلاح لم يكن معروفاً عندهم، فلم يصعب عليه أن يقتل أخاه ويستردّ الزعامة.

جمع (دنقزوايو) نحو خمسمائة مقاتل، جعل منهم نواة لجيش أصبح فيما بعد أقوى جيش في تلك المنطقة. وأخذ يتوسع بالتدريج مخضعاً القبائل المحيطة به. وكانت سياسته خليطاً من اللين والشدة، فكان يدخل رؤساء القبائل في طاعته بالبذل والمصاهرة، ولا يلجأ إلى الحرب، إلّا عند الضرورة القصوى. فيما بعد، عكس (شاكا) هذه السياسة، فأصبح هدفه القضاء على خصومه قضاء مبرماً.

ابتكر (دنقزوايو) نظاماً للتجنيد الإجباري، فكان يفرض على كل قبيلة تدخل في حلفه، أن ترسل عدداً من شبابها للخدمة في جيشه. كان الوجود الأوروبي في طرف القارة الجنوبي، أخذ يتّضح، البرتغاليون إلى الشرق، في خليج (بلْباو)، والبوير في الغرب، والإنجليز في الجنوب حول (رأس الرجاء الصالح).

كانت سياسة (دنقزوايو) تهدف إلى خلق تحالف قوي من القبائل الأفريقية، لمواجهة المدّ الأوروبي، وقد استطاع خلال فترة حكمه التي امتدّت ثماني سنوات، أن يوقف الصراعات والحروب بين القبائل، ويجعل كل قبيلة تستقر في رقعة محددة من الأرض، فلا تتعدّى على أراضي جيرانها. وقد بلغ من حنكته، أنه حاول أن يقيم علاقات تجارية مع البرتغاليين، وأنشأ مصانع لأعمال الخشب، ودباغة الجلود، وأرسل عدداً من رجاله ليتعلّموا من الأوروبيين. ولكن البرتغاليين كانوا يسعون وراء الذهب والعاج، فلم يستجيبوا لمحاولات (دنقزوايو).

وجد (شاكا) متنفّساً لطموحه ومهارته العسكرية، في جيش (دنقزوايو). كان محارباً محترفاً يعد العدة للدور الكبير الذي قام به فيما بعد، ولاؤه لنفسه وطموحاته فحسب. وقد ابتكر أساليب جديدة للقتال وأسلحة جديدة. غيّر الحربة التقليدية الـ (أَسقايْ) وابتكر بدلاً منها رمحاً أقصر، له سنٌّ طويلة، أشبه ما يكون بالسّيف، وأسماه (أُكُلوا)، وكان حين يقتل خصمه يصيح (أكلْت. أكلْت) وجعل من التّرس سلاحاً للهجوم أكثر من الدفاع. ونزع حذاء الجلد، وأخذ يحارب حافياً كي يكسب سرعة ومرونة.

خلال ذلك تبلورت أفكاره حول أسلوب الحكم، كما اتضح من سلوكه بعد ذلك. كان (دنقزوايو) يرى الحرب شرّاً يجب على الملك الحكيم أن يتجنّبه إذا استطاع، فكان لا يلجأ إليها إلّا بعد أن تفشل الوسائل السلميّة كلها، وإذا دخلها، يسارع إلى الصّلح إذا رأى أي بادرة للصلح من خصمه. كان (شاكا) يحتقر هذا الأسلوب، ويرى أنه لا يصنع السلم المطلوب، بل يُفضي إلى مزيد من الحروب. لم يكن يرضى بغير إبادة أعدائه إبادة كاملة. يبدأ بالهجوم، ويلاحق أعداءه بلا هوادة.

فيما يلي، يصف (ماسيسي كونيني) في ملحمته الشعرية، حرب (دنقزوايو) مع الملك (زُوي) ابن الملكة المرعبة (نُتُمْبازي) التي كانت تعلّق رؤوس أعدائها على حيطان قصرها، كما يصف دور (شاكا) في الحرب:

أقسم (زُويد) أن ينزع الريشة من رأس (دنقزوايو) وقال، وقد ملأه الزهو:

«حين أضع ريشة (دنقزوايو) على رأسي سوف تعنو لي الجباه في طول أرض (نقوني)»

وكانت أمه الفظيعة، الملكة (نتُمْبازي)
تقول له، تشدّ من عزمه:
«اضرب الثعبان على رأسه حتى الموت.
إنك إذا هزمت (دنقزوايو)
فسوف تخشاك شعوب الـ (نقوني)

وتخضع لك لأن الذي يهزم الرجل المهاب، يكون هو نفسه مُهاباً».

لذلك هيّأ (زويد) جيوشه للقتال،
جمع رجاله من خيرة المحاربين، الذين
خاضوا معارك كثيرة من قبل.
وغير بعيد كان جيش المططوا يتأهّب.
أعدّوا خططهم، واستمعوا إلى تقارير جواسيسهم
الذين أخبروهم أن جيش (زويد) يستعد للقاء حاسم.
كل قائد من القواد أبدى رأيه،

وحين جاء دور (شاكا) قال:
«الرأي عندي هو هذا،
إنهم واثقون بالنصر، لأنهم أكثر منّا عدداً
لذلك علينا أن نبدأ بالهجوم
ونختار قواتنا بعناية
نقسّمها إلى فرق، ونخصص لكل فرقة أهدافها
جيشهم ضخم، ولكنهم لم يفرغوا من تنظيمه بعد
كما أخبرنا جواسيسنا.

لذلك علينا أن نهاجمهم فوراً،
ونقطع خطوط إمداداتهم.
علينا أن نبدأ الهجومِ من الميمنة والميسرة
ونحتفظ بقوّتنا الكبرى في القلب.
إذا انقضضنا عليهم انقضاضاً خاطفاً
سوف نطوّقهم ونخنقهم دفعة واحدة
هذا يلزم له سرعة الحركة
لذلك يجب أن ينزع مقاتلونا أحذيتهم ويحاربوا حفاة
وينطلقوا خفافاً مثل هبوب الرياح».

استمع القادة إلى رأيه باهتمام،
وبدا على وجوههم أنهم لم يقبلوا كل ما قال،
نظر (شاكا) إلى (نقوماني) القائد الأعلى للجيش
وقال، موجّها كلامه إليه:
«لم نقض على أعدائنا قضاء تاماً في حروبنا كلها،
لذلك نحن نحارب الأعداء أنفسهم مرّة بعد مرّة
وهذا (زويد) من كلّ زعماء الـ (نقوني)
لم ينزل به العقاب الذي يستحقُّه
لا بد من القضاء على الملكة (نتمبازي) الكريهة
كي يستتب الأمن في البلاد».

أطرق الملك (دنقزوايو) زمناً يفكر، ثم قال:
«يا بني، إنني أعلم أن دماء الشباب الحارّة تتحرق للحرب.
وأعلم أن (زويد) سفّاح جائر
لكنني، رغم ذلك، أريد حرباً في حدود المعقول».

وهكذا انقضّ جيش (دنقزوايو) عليهم كما تهب العاصفة،

وارتبكت قوّات (زُوِيد) وتفرّقت في كل اتجاه
ووقع (زويد) نفسه في الأسر
وسأل الملكُ (شاكا) رأيه، فقال:
«مولاي. الرأي الأخير لك،
ولكن لو كان الأمر بيدي، لوضعت الآن
حداً لعذاب الشعب،
فليس قتل قاطع طريق جريمة تُغضب الأسلاف».

وعند الفجر، طلب (دنقزوايو) من (شاكا) أن يجيئه.
قال له «إني أعرف أن رأيك هو عين الصواب
ولكنني لن آخذ به، لعلّ هذا الإذلال، يكفي (زويد).
الذين لا يتوقعون النجاة، يستقيم سلوكهم حين
تُتاح لهم فرصة أخرى للحياة، ويصيرون
أكثر سماحة من بقية الناس».
كان (شاكا) يعلم أن الملك سوف يصل إلى قراره هذا.
قال له بألم «مولاي، أنت دائماً تفعل الصواب
وترعى، في كل أعمالك، مصلحة شعوب (نقوني).
وتطلب العدل للجميع، والسّلام،
لكن البلاد، ويا للأسف، تضطرب بالفوضى،
والشرّ لا ينفع معه اللّطف،
وعلى أي حال، فأنا خادمك يا مولاي».

قريباً سوف تنادي الأقدار (شاكا) فارس الزولو، لينهض بالعمل الذي ظل يعد نفسه له، وهو يحارب في جيش (دنقزوايو) ملك الـ (مطوا). كان هذا قد شاهد من بسالته وإخلاصه ما سرّه فقربه إليه واصطفاه ابناً له.

وإلى جانب العاطفة، كان (دنقزوايو) يريد أن يستغّل (شاكا) أداة لتنفيذ سياسته ومدّ سلطانه. كان يريد أن يجعل منه ملكاً على بلاد الزولو، وبذلك يضمن ولاءهم ومناصرتهم، ويكونون قوة عازلة بينه وبين خصومه. وقد عرض (دنقزوايو) صراحة على ملك الزولو (سنزانخونا) أن يُعلن (شاكا) خلفاً له، فقبل إذ هو في بلاط (دنقزوايو) لكنه حين رجع إلى أرضه، اضطرته زوجته الكبرى الملكة (مكابي)، وكانت ذات نفوذ وهيبة، أن يغيّر رأيه، ويجعل ابنه منها (سقويانا) وريثاً شرعياً.

خلال ذلك، طوّر (شاكا) أسلوبه في الحرب وصقل مهارته في القيادة فأصبح قائداً عسكرياً لا نظير له في مملكة الـ (مططوا) الواسعة. ونمت حوله أسطورة بأنه قائد لا يُغلب. وهو أسلوب عرفه القادة المسلمون الأوائل، وتفننوا فيه، واستطاعوا أن يهزموا به قوّات تفوقهم عدداً وعتاداً. وقد سلكه نابليون بونابارت في انتصاراته الأولى المدهشة، وأصبح فلسفة عسكرية ثابتة لدى الألمان، خاصة في الحرب العالمية الثانية وأسموه (بلتزْكريق ـ Blitzkrieg) ـ سرعة الحركة ومباغتة الخصم، والالتفاف بالجناحين، ثم الانقضاض بكامل ثقل القوات في القلب بهدف تدمير قوات العدو تدميراً ماحقاً. وقد بلغ من إعجاب (دنقزوايو) بـ (شاكا) أنه جعله قائداً على صفوة القوات في جيشه المعروفة باسم (ايزي جوي).

في عام ١٨١٦، جاء مبعوث إلى (دنقزوايو) يحمل نبأ وفاة ملك الزولو. كان (شاكا) في التاسعة والعشرين من العمر، وأحس لتوّه، أن الساعة التي كان ينتظرها قد حلّت. طلب من (دنقزوايو) أن يخلي سبيله ففعل، وأعطاه فرقة من قوات الـ (ايزي جوي) المختارة، تصحبه إلى أرض الزولو، ويتعزّز بها وضعه. لكن (شاكا) تريث قليلاً، فقد علم أن أخاه (سقويانا) قد حلَّ محلّ أبيه، كما دبّرت أمه الملكة (مكابي).

أرسل (شاكا) أخاه لأمه (انْقوادي) الذي ولدته (نانـدي) من (قنديانا)، وكان قد آواهم حين طردتهم قبيلة (أيلا نفيني). كانت مهمته أن يتخلص من (سقويانا) كما اتضح فيما بعد، إذ إنهم، في اليوم الذي دخل فيه (شاكا) مركز الحكم في بلاد الزولو، وجدوا جثة (سقويانا) طافية في ماء النهر. وكانوا يعلمون أن ذلك لم يحدث صدفة.

ها هنا يصف (ماسيسي كونيني) في ملحمته الشعرية، وصول نبأ موت (سنزانخونا) إلى (دنقزوايو) ووداعه لـ (شاكا) وعاطفة الأبوة والبنوة التي ربطت بين ملك الـ (مططوا) الشيخ، والفتى الذي سوف يصير وشيكاً ملكاً على الزولو:

«أخذت يدا (دنقزوايو) ترتعشان لوقع الصدمة، وأخذ يمشي رائحاً غادياً ورأسه يضطرب بالمشاغل. يا للخسارة! كان يؤمّل أن يصلح بين (شاكا) وأبيه.

سأل الرسول مرة بعد مرة،
كيف مات (سنزانخونا)؟ وهل ترك وصيّة؟
أجابه الرسول، وهو لا يقوى على حبس الدموع:

الموت بداية رحلة جميلة إلى
مُستقر الأسلاف، ولكن اللحظات الأخيرة من حياة الملك كانت مؤلمة.

نظر إلى زوجته الملكة (مكابي)
وسألها بلهفة، أين ابن (سقويانا)؟

أجابته الملكة، وأكد له الحاضرون
أنه جالس بجانبه لكنه لم يصدق. قال إنهم يخدعونه.

قال إنه لا يرى إلّا (شاكا).
ثم أخذ يهذي ويصرخ:
(شاكا يلقي ظله فوقي،

يحدّق في وجهي بعيون قاسية
كشعاع الشمس).
ثم حاول أن ينهض
ومدّ يده ليمسك بيد ابنه.
لكنّه هوى. سقط بلا حراك.
التفّ حصير الأرض حول جسده
وما زالت المناخات تتردّد أصداؤها)
أجهش الرسول بالبكاء
ودمعت عينا (دنقزوايو) وكان عصي الدموع
فأشاح بوجهه.
هزّه نبأ موت (سنزانخونا)
وأيضاً تذكر أنه قد شاخ، وأن حياته لن تطول.
ثم تذكّر أنه ملك، فعاودته رباطة جأشه
وقال مخاطباً شاكا:

(الموت يمحو من النفوس آثار
الجرائم التي ارتكبها الموتى حين كانوا أحياء. علينا أن نحزن، ولكن
لا نستسلم طويلاً للحزن.

الآن، يجب أن تستعدّ للرحيل،
قبل أن تنتهي فترة الحداد.
لا بد أن تنقذ مملكة آبائك من الفوضى،
وسوف أعطيك فرقة من قوات الـ (ايزي جوي)
يزيدونك هيبة وأنت تدخل عاصمة مُلكك،
كما يليق بأمير مثلك).

أجابه (شاكا) قائلاً:
(الدموع التي واسيتني بها
تغسل أحزان قلبي.
سوف أنسى قسوة أبي.
أنت كنت لي أباً
شملتنا بعطفك
بعد أن كنا صعاليك في الأرض
تتخطفنا عيون السكارى والحمقى.
صرنا عيالكَ بحق.
وأنا أدين لك بكل شيء.
سوف أفارقك الآن مضطراً
لأنجز المهمة التي ينتظرها آبائي مني.
الوداع، وأنا ابنك المطيع حيثما كنت).

عانقه (دنقزوايو) وقد دمعت عيناه من التأثر، ثم طلب أن يحضروا له الرّمح الملكي، وقال:

ها أنا أعلن في الملأ، وسوف تعلم الأجيال التي لم تولد بعد، أنني أمدح بطولتك.

وأقرّ، أنك، أكثر من أي قائد آخر،
أعنتني على تثبيت أركان هذه المملكة العظيمة.
حسبي أنني هيّأت الأرض، وزرعت البذور،
لمولد أعظم حقبة في تاريخ أمّتنا.
خُذ هذا الرّمح الطقوسي الذي ورثته عن آبائي،
أولئك الذين بحكمتهم أرسوا أساس أمتنا

وما أنا إلّا شعاع من شمس عظمتهم.
لقد رأوا ببعْد نظرهم وحدة شعب النخيل.
حافظ على الرمح، وحافظ على ذكراهم
فنحن جميعاً فروع من دوحتهم.
وها أنا أعطيك البركة باسمهم.
وهكذا افترق البازيان العظيمان،
أحدهما نحو الغروب،
والآخر نحو الفجر.

اتضح فيما بعد، أن (شاكا) كان بعيد النظر، حين نصح الملك (دنقزوايو) ألا تأخذه الرحمة على (زويد) زعيم قبيلة أيْدواتْدوي) حين وقع في قبضته فقد قُدّر لـ (دَنْقزوايو) أن يموت قتيلاً على يدي (زويد).

كان (دنقزوايو) أميل إلى الرحمة، وكان يعفو عن (زويد) كل مرة، لصلة الرحم التي بينه وبين قبيلة الـ (مططوا). لكن (زويد) إلى جانب حماقته، كان غداراً، وقد ساهم بنصيب كبير في الحركة التي عُرفت بحركة الـ (أمفيكاني)، أي (الشّتات)، حين اقتُلع مئات الآلاف من الناس من جذورهم، بسبب الحروب والغارات، وما نتج عن ذلك من مجاعات وبؤس. أصبحوا عصابات تسيح في الأرض، وتعيش على النهب والسلب.

في هذه الفترة برزت امرأة محاربة تُدعى (مانتاتيسي) جمعت حولها زهاء خمسين إنساناً، مكوّنين جحفلاً مرعباً، بث الذعر، وألحق أضراراً بالغة بالزرع والضرع، ولم يتفرّق حتى ماتت (مانتاتيسي).

سوف يقضي (شاكا) آخر الأمر، على سلطان (زويد)، لكنه قبل ذلك، كان عليه أن يثبت مركزه في مملكة الزّولو. سارع إلى القضاء على خصومه ومعارضيه، لكنه عفا عن أخ له يسمى (دِنْقاني) سوف يصنع معه فيما بعد، ما صنعه (زويد) بالملك (دنقزوايو).

ترك (شاكا) رباط أبيه (سنزانخونا) وأقام لنفسه رباطاً جديداً اسمه (كوابولاوايو) يعني، (مقر الباطش بأعدائه). وانصرف بكل طاقته إلى تكوين جيش قوي يكون قادراً على تنفيذ سياسته التوسعية. كوّن أربعة فيالق، كل فيلق بمثابة جيش قائم بذاته، أكبرها (الصدر) الذي يمسك بالعدو، ثم فيلقان هما بمثابة قرني ثور شديد البأس، أول ما تبدأ المعركة يحيطان بالعدو في حركة خاطفة، وحين يلتقي قرنا الثور يطبقان عليه. ووراء (الصدر) فيلق هو بمثابة (عجز) الثور، يجلسون وظهورهم إلى أرض المعركة، حتى لا تستفزهم الحماسة، ولا يدخلون القتل إلّا في المرحلة الأخيرة الحاسمة.

كل جيش يتكوّن من عدة فرق مستقلة بذاتها، ولها معسكر خاص بها. وقد استغل (شاكا) إلى أبعد مدى التنافس بين الفرق، فكانت كل فرقة تقاتل لتحصل على السبق والشرف لنفسها. ومنع الجنود من الزواج، إلّا من كان منهم متزوجاً أصلاً، وظل هو نفسه عازباً إلى آخر حياته. وكوّن فرقة من الفتيان الحديثي السن، أسماها

(أوفاسمْبا) أي (السحاب)، أصبحت فرقته المفضلة، وصبَّ فيها كل أفكاره في القتال.

ومن ابتكاراته، أنه كوّن فرقة من النساء، وابتدع نظاماً من المرافقين من الصبيان (أوديي) كانت مهمتهم أن يحملوا أدوات الطعام والحصائر للجنود. لم يكن الجيش يحمل زاداً، بل يأكل مما يأخذه في طريقه.

فوق كل شيء، فرض (شاكا) على جيشه نظاماً صارماً للتدريب، بحيث أصبح آلة رهيبة، يعرف كل جندي مكانه فيها، والمهمة المنوطة به، يتحرك في صمت بإشارات من القادة.

كان محور فلسفته العسكرية، خفة الحركة، ففرض على جنوده خلْع أحذيتهم والقتال حفاة. ولما رأى تذمّراً من بعضهم، أمر بجمع أكوام هائلة من الشوك، وأمر بضرب الطبول، وأمرهم أن يرقصوا حفاة على الشوك، وكان هو أول الراقصين. وكان يقتل أي جندي يتردد في دخول حلبة الرقص. هكذا أصبح الجيش سريع الحركة، بدرجة لم يستطعها أي جيش من قبل، فكان يقطع مسافة خمسين ميلاً في يوم واحد.

أول ما أطلق (شاكا) هذه الآلة العسكرية الرهيبة، كان على قبيلة أُمه، الـ (أيلانقيني)، فسرعان ما انهاروا أمامه، فنكّل بكل الذين أساءوا إليه وإلى أمه، وضمّ من بقي منهم حياً إلى قبيلة الزولو، وأدخل الشبان في جيشه.

ثم وجّه بصره نحو قبيلة (بتوليزي) التي يتزعمها (بنقاشي). كان

ذلك أول اختيار حقيقي لقوات (شاكا)، فقد كان خصمه هذه المرة قوياً حسن الاستعداد.

أمر (شاكا) جنوده أن يقفوا، وتروسهم متجهة بحافاتها إلى العدو. كان يريد أن يوهمهم أن جيشه قليل العدد. ولما بدأ القتال، وأخذ الجناحان (قرنا الثور) يطبقان على الخصم، أدار كل جندي ترسه في حركة خاطفة، مما أدخل الذعر في جيش (بنقاشي) فقد بدا لهم كأن قوات (شاكا) قد زادت ضعفين في طرفة عين.

انصبّ جيش (شاكا) كالسيل العتيّ على قوات (بنقاشي) فلم تثبت لوقع الصدمة. وسرعان ما انهارت وتشتّتت فأمعنوا فيهم قتلاً، في مذبحة رهيبة، قضت على أي نفوذ لقبيلة (بتوليزي) قضاء تاماً.

استولى (شاكا) على أبقارهم ومواشيهم وبعث بها هدية إلى ولي نعمته (دنقزوايو). سرّ ملك الـ (مططوا) بذلك، ولكنه أعادها إلى (شاكا) ففرّقها في جنده. وساق أكثر من ألف من نساء الـ (بتوليزي) وضمّهن إلى حريمه. وأدخل شبابهم في جيشه. وضمّ من بقوا أحياء إلى أكناف قبيلة الزولو. وقد صار (البتوليزي) منذ ذلك اليوم جزءاً من شعب الزولو. وجدير بالذكر أن الزعيم الحالي للزولو (منقوسوتو بوتوليزي)، هو في الأصل من البتوليزي، كما يدل اسمه، ولكنه ينتمي إلى البيت الملكي للزولو من ناحية أمه.

نجا (بنقاشي) بنفسه، مخلّفاً وراءه أشلاء جيشه المنهزم، وتاركاً نساءه وعياله، وعبر نهر (أمغلوزي) لائذاً بـ (زُوِيْد). أحسن هذا

استقباله، واستمع إلى تفصيل مأساته، ثم قتله غيلة ليلاً وهو نائم. وأعطى رأسه لأمه (نُتمبازي) فضمته إلى الرؤوس المعلقة على حيطان قصرها.

خُيّل لـ (زُويد)، بتحريض من أمه المرعبة (نُتُمْبازي)، أنه يستطيع أن يكون سيداً مطلق السلطان، على قبائل الـ (نقوني) بأسرها. وكي يحقق هذا الحلم، كان عليه أن يقضي على (دنقزوايو).

جرّب الحرب مرة بعد مرة. لكنه لم يفلح، فقد صنع (دنقزوايو) بسياسته الحكيمة تحالفاً عريضاً من القبائل، تدين له بالولاء، وكان جيشه قوة لا قِبل لـ (زويد) بها. إذاً لا بد من الحيلة.

كان لـ (زويد) أختٌ بالغة الحُسْن، تُدعى (نوبنْقوني)، فأرسلها هدية إلى (دنقزوايو) وكان يعلم ضعفه نحو النساء، وأوصاها أن تعمل على إغراء ملك الـ (مططوا) الشيخ بكل ما أوتيت من حيلة، وتطّلع على أسراره وخُططه وتثبّط من عزمه على الحرب، وتكون عيناً له عنده.

لم يكن ذلك عسيراً على (نوبنقوني) الجميلة، فقد فُتن بها الملك فتوناً عظيماً، وصارت أقرب نسائه إليه. لم يستمع (دنقزوايو) لنصح مستشاريه الذين لم تنْطَلِ عليهم حيلة (زويد). وكان (شاكا) يراقب عن بعد، ويرسل إلى صديقه وولي نعمته يحذره من غدر (زويد)، ولا فائدة.

أصبح الملك أسيراً في حبائل (نوبنقوني) توجّهه كيفما أرادت. زيّنت له أن أخاها (زُويد) يحبّه كما يحب الابن أباه، وأنه لا يطلب غير السلم والحياة الوادعة، وليست لديه أي نوايا عدوانية.

وذات يوم، أقدم الملك على عمل أذهل قواده ومستشاريه. أعلن فجأة أنه عزم على القيام بزيارة وديّة لـ (زويد). ذكّره قوّاده بغدر ابن (نتمبازي) الكريهة بـ (بنقاشي) وآخرين، وأن (نتمبازي) سوف تسعد سعادة عظيمة، ولا شك، بأن تضم رأسه إلى رؤوس الملوك والقادة الذين زيّنت بهم حيطان قصرها.

لم يأبه لقولهم، ولم يقبل حتى أن يحتاط لنفسه بأن يأخذ معه حرساً قوياً من جيشه. كان يظن أن (زويد) لن يجرؤ على الغدر به، لهيبته، ولما بينهما من صلات القُربى والرّحم.

لم يصدّق (زويد) عينيه، حين رأى ملك الـ (مططوا) العتيد، يدخل عليه في مقر داره، مجرّداً من السلاح، إلّا من عدد قليل من جنوده. احتفى به حفاوة عظيمة، فأقام له الولائم والرّقص والغناء، واستمع إلى تقريعه ونصحه باستكانة وخضوع، وبعد أيام من الحفاوة، دبّر لذبحه ليلاً وهو نائم مطمئن في فراشه.

كانت نهاية محزنة لرجل، يعتبره التاريخ واحداً من الزعماء الأفذاذ الذين حكموا تلك البلاد. كان يسعى إلى توحيد القبائل المتحاربة، وإنشاء دولة قوية مستقرة، تستطيع أن تصمد أمام الضغط الأوروبي المتزايد.

أصبح لا مفر من الصّدام بين (زُويد) و(شاكا). كان (زويد) مُغتراً بغزارة جيشه، ولكن جيش الزولو، رغم قلة عدده، كان قوة رهيبة، كما برهن في المعارك التي خاضها. وفي عام ١٩١٧، كان (شاكا) قد ضمّ إلى سلطانه رقعة من الأرض تزيد أربعة أضعاف عما ورثه عن أبيه (سنزانخونا). وبلغ عدد القوات التي يمكن أن توصف بـ«قوات الصاعقة» نحو ثلاثة آلاف، مدربّة تدريباً قاسياً، ومنظمة تنظيماً صارماً، وذات شراسة في القتال، لم تعهدها جيوش تلك المنطقة من قبل. اتّضح ذلك في المعركة التي خاضها (شاكا) ضد (بُنقاشي).

اصطدم الجيشان أول الأمر، في معركة أَدْمَت جيش (زويد) ولكنها لم تقصم ظهره. استطاع (زويد) أن يجمع أشلاء جيشه ويعيد تنظيمه، ويستعد لمعركة حاسمة. ولما أحسّ أنه استعد تماماً بدأ هو الحرب.

كان (شاكا) أيضاً قد استعد. كان يعلم أن أسلوبه المعهود في الحرب، لن يُجدي ضد قوات كثيرة العدد، يصعب تطويقها من الجناحين، والانقضاض عليها من القلب، فوضع خطته لحرب استنزاف قد يطول أمدها. أفرغ عاصمته، وكل القُرى الخاضعة له من النساء والأطفال والشيوخ والمواشي، ووضعهم في أماكن آمنة في الغابات والوديان بعيداً عن ساحة الحرب. ثم أخذ يناوش قوات

(زويد) في سلسلة من الغارات السريعة المتتابعة، دون أن يدخل معها في مواجهات كبيرة. وكان ينسحب أمامها ويُغريها بالتوغل في بلاد الزولو.

طالت خطوط إمدادات جيش (زويد)، ولم يجدوا طعاماً في الأرض التي يمرون بها، فقد كانوا يجدون قرى مهجورة، ليس فيها أحد. أما جيش (شاكا) فقد كان مزوّداً، بفضل نظام المرافقين، الـ (أوديبي) الذي ابتكره.

بعد أسبوع كامل من هذه المناوشات، تضعضع جيش (زويد) وفترت همته، بسبب الجوع والإعياء، وأنه يحارب عدواً غامضاً كأنه شبح. وقرّر القادة الانسحاب.

أمهلهم (شاكا) حتى ضربوا معسكرهم، ودخل عليهم الليل، فأرسل فرقاً صغيرة من قواته لتزعجهم وتمنعهم من النوم. وظلوا هكذا حتى الصباح. حينئذٍ، وقوات (زويد) على تلك الحالة من الإعياء والارتباك، ضرب (شاكا) ضربته القاضية. استمرت نار الحرب يومين كاملين، ولما توقّفت، كانت قوات (زويد) قد تحطمت تحطيماً كاملاً.

لم يكتفِ (شاكا) بهذا، ولكنه أخذ فرقة من قوات الاحتياط التي لم تشارك في الحرب، وسار بهم سيراً سريعاً مسافة تسعين ميلاً إلى عاصمة (زويد). كان من عادة (زويد) ألا يخرج مع جيشه، ويظل بمأمن في داره، مع حرس كثيف من قواته. وكان هدف (شاكا) أن يقضي عليه قضاء مبرماً.

وصلوا ليلاً، فأمر (شاكا) جنوده أن ينشدوا نشيد النصر لجيش (أنْدرانْدْري). سمع الناس النشيد، وظنّوا أن جيشهم قد عاد منتصراً، فخرجوا لاستقباله، فمات منهم من مات قتلاً، والباقون أحرقتهم النيران التي اشتعلت في البلدة. لم ينجُ منهم إلّا عدد قليل.

أما (زُويد) فقد أفلت من قبضة (شاكا). سار شمالاً، حتى وصل بلاد الـ (سوتو). لم يطل به المقام، حتى قضى نحبه، على يدي (ميجاني) الساحرة، ملكة الجراد، ذات الضّروع الأربعة الضخمة، التي كانت تدلّيها مثل القرب وراء ظهرها. كانت نهاية تعيسة لقاتل (دنقزوايو) الكريم، الذي مات غدراً، بسبب هيامه بـ (نوبنقوني) الفاتنة.

مات (دنقزوايو)، وبذلك انهار التحالف القبلي العريض، الذي بناه هذا الزعيم الفذّ بصبر وحنكة، إذْ لم يأتِ بعده زعيم له من قوة الشخصية وبُعد النظر، ما يكفل له المحافظة على ذلك الحلف وتدعيمه. وقضى (شاكا) على نفوذ الـ (بوتو ليزي) ثم هزم (زُويْد) في معركة حاسمة، بدّدت شمل قبيلة الـ (أند واندري) القوية، وبذلك خلا له الجو ليصبح أقوى زعيم في المنطقة، تخضع لسلطانه قبائل الـ (نقوني) بأسرها.

سوف يقضي البريطانيون على نفوذ الزولو بعد موت (شاكا). وسوف يقضي البُوير الـ (أفْركانر) المنحدرون من أصول هولندية على النفوذ البريطاني وينفردون بالسيطرة على جنوب أفريقيا إلى يومنا هذا. ولعل نفوذهم ينتهي قريباً بواسطة تحالف جديد من القبائل الأفريقية الجنوبية، بأسلوب هو خليط من أسلوب (دنقزوايو)

وأسلوب (شاكا).

كل هذا ما يزال في طيّات الغيب. أما الآن ـ في نحو عام ١٨٢٠ ـ فإن (شاكا) في أوج قوّته، وظلّه أبعد فأبعد، يمتد يوماً بعد يوم.

إلّا أن أمه (ناندي) لم تكن راضية، فرغم كل ما يحيط به من أسباب العزّ والألق، كان ينقصه أمرٌ هام من وجهة نظرها. كان قد حرّم على نفسه الزواج كما حرّمه على جنده. وقد اختلف المؤرخون في سبب ذلك. بعض المؤرخين الأوروبيين، يرون أن انشغاله بأمور الحرب والحكم، لم يترك له وقتاً ليتزوج ويكوّن أسرة. وبعضهم يذهب إلى أنه كان عازفاً عن النساء أصلاً ولم تكن لديه قدرة على الإنجاب. ويقدمون دليلاً على ذلك أنه كان يسمي حريمه (الأخوات)، ويقول (هنّ أخواتي).

أما برفّسر (ماسيسي كونيني)، وهو مؤرخ بقدر ما هو شاعر، فهو يرى رأياً آخر. يقول، معتمداً على التراث القبلي المتناقل شفاهة عن (شاكا)، أنه كان يعاشر نساءه وكن يُنجبن منه. ولكنه كان يخشى الصراع على الحكم بعد موته ـ وربما في حياته ـ فكان بمجرد أن يولد له مولود، يؤخذ في خفاء وسرّية إلى أسرة تربيه كأنه ابنها.

هكذا نجد في هذا المنظر من ملحمة (ماسيسي كونيني)، أن (ناندي) أم (شاكا) لم تكن سعيدة كما يجب خلال احتفالات النصر على (زويد) فسارعت إلى العودة إلى مقرها. وكانت لها مدينة خاصة بها، بعيداً عن مقر ابنها. كان يشغل بالها أن ابنها لم ينجب وريثاً يخلفه. ولما علمت أن إحدى نساء (شاكا) الأثيرات لديه قد حبلت منه، دبّرت أن تضمها إلى حاشيتها، ورعتها حتى

ولدت مولوداً ذكراً. إلّا أن (أمْبوفا) وزير (شاكا) علم بذلك، فتخلص من المولود أولاً، ثم أخبر الملك بعد ذلك.

سار (شاكا) إلى لقاء أمه، كما يصف (ماسيسي كونيني):

حين نثر الفجر بذور الضياء
قام (شاكا) وأخذ يستعد
كأنه يتهيّأ لاحتفال عظيم.
لم يأخذ معه غير نفر قليل من حرسه.
صعدوا جبالاً، وقطعوا أودية
وحين وصل مدينة (ناندي)
دخل عليها في مقرّها
فوجدها جالسة على حصير ملوّن
تترقّب مجيئه.

لم يستطع الكلام، فقد ألجم الغضب لسانه.
قال لها، وهو يتمتم بالكلمات:

«يا أماه. إنني جرّبت آلاماً لا حصر لها
لكنني أبداً لم أجرب مثل هذا الألم.
أنت، أقرب الناس إليَّ، تخدعينني؟
تربّين طفلاً، يكون على يديه خراب بيتنا؟
نعم. (أمبوفا) أخبرني بكل شيء.
بأي حق أمنع جنودي من الإنجاب، ولا أمنع نفسي؟
كيف يثقون بي؟ كيف يطيعون أوامري؟
أما أحببتك؟ أما وثقت بك أكثر من كل الناس؟

أما سمعت نصائحك؟
كيف تعملين على إغضابي، وتفتحين الباب
لأعدائي؟».

أمهلته حتى هدأت سورة غضبه
وقالت له بصوت مليء بالحنان:

«يا بني. إنك تملك أشياء كثيرة
ولكنك لا تملك كل شيء
وتعرف أشياء كثيرة
ولكنك لا تعرف كل شيء.
القلب أيضاً له مطالب لا يمكن إغفالها،
وأنا ضعيفة لأنني أستمع إلى نصائح قلبي.
ظننت أنك تشتاق إلى قلب
يستجيب لنداء قلبك
وتكون من ذلك بذرة
تخصب أرضاً إلى الأبد.
والآن ما الفائدة؟
(أمبوفا) اللعين قتل الطفل الذي أحببتُه،
إنه هو الذي سوف يكون على يديه دمار بيتنا.
يقتل اليوم، ويقتل غداً، ولا يرتوي من الدماء».

استمع إليها في هدوء وقال لها:

«إنني أفهم عواطفك،
ولكن توجد اعتبارات أخرى
لا تقدّرينها.

إن أصوات أسلافنا
تهيب بنا أن ننهض بأعمال تسمو على ذواتنا.
إنني ملكٌ أُملي إرادتي على شعوب كثيرة
في أرض الزولو
كيف أفعل ذلك وأنا لا أستطيع أن أحكم نفسي؟
حرّمت الزواج على جنودي،
فلا بد أن أرتفع فوق رغباتي
وأستجيب لمتطلبات المجد
الذي أريده لأمتنا.
إذا عجزت! إذا أطعتُ نوازعِ نفسي!
حينئذٍ سيحلّ بنا الدمار حقاً.
الناس يريدون رجالاً عظماء
يتخذونهم مثلاً.
إن روحينا يا أمي، لم تعودا منسجمتين؟
روحك تحسّ بالوحشة وأنت تعيشين في النعيم،
وأنا روحي روحُ مسافر قلق،
أبداً تدهشه غرابة الأشياء.
وأما (أمبوفا)، فلا غنى لي عنه.
إنه مستشاري الأمين.
يرى ما لا أراه أنا
إنه ضمير الشعب ودرع الملك
هل أتخلّى عنه وأقول للناس
إنني خلعته لأن أمي غاضبة عليه؟
لا. هذا عمل لا يليق بملك مثلي».

بكت (ناندي) وهي تستمع إليه.

قالت له «إنني أحبك يا بني رغم الآلام التي تحملتُها من أجلك.
إنني امرأة. وقلبي قلب امرأة.
كل هذا الكلام عن الحرب والمجد
لا قيمة له عندي».

عانقها برفق ليزيل الحزن من عينيها،
فانهمرت دموعها أكثر،
وكانت قد بذرت في عقله
بذور الشك في (أمبوفا).

في عام ١٨٢٠، أرسلت شركة (فيرْول) التجارية، (هنري فرانسيس فِنْ Henry Francis Fynn) على رأس بعثة إلى ميناء ناتال، وكلّفته بفتح الطريق لإقامة علاقات تجارية مع القبائل المقيمة على الساحل الشرقي لجنوب أفريقيا. وكما حدث في الهند، فقد كانت تلك، طليعة النفوذ السياسي البريطاني بعد ذلك. كانت المنطقة خاضعة لسلطان دولة الزولو المنيعة التي أقامها (شاكا)، فكان لا بد من السير إليه في عاصمته، واستمالته بشتى الوسائل.

سجل (فن ـ Fynn) مشاهداته وانطباعاته في بلاد الزولو، ولقاءه لـ (شاكا) في مذكرات تعتبر وثيقة من أهم الوثائق عن تأريخ مملكة الزولو. لكنها لم تنشر كاملة إلّا في وقت متأخر، فقد نُشرت عام ١٩٥٠.

كان (فن ـ Fynn) أول أوروبي يترك وصفاً مكتوباً للقائه بـ (شاكا)، لذلك لا يكاد يخلو كتاب عن تاريخ مملكة الزولو من إشارة إليه. وفيما يلي نبذة من وصفه:

«لا بد أن أسارع بالقول، إن المسافة من ميناء ناتال، إلى مقر (شاكا) لا تزيد عن مائتي ميل. ولكن رحلتنا كانت غاية في البطء، بإشراف (مبكوانا) عم (شاكا) الذي أرسله لرفقتنا. كان هو الذي يأمرنا بالحل والترحال. واتضح لنا بعد ذلك أنه لم يسلك بنا أقصر الطرق، فقد تسكّع بنا عن عمد في طريق طويل. وكان يقف بنا على زعماء عشائر لا وزن لهم، وكلما مررنا بمعسكر للجيش يأمرنا بالنزول.

أرهقونا بالضيافة والذبائح التي كانت أحياناً تصل إلى اثنتين أو ثلاث في اليوم الواحد. وكانت تنضم إلينا في الطريق جماعات من الزولو. ورغم ذلك لم نملك إلّا أن نعجب بما شاهدناه من الاستقرار والرخاء والنظام في كل المناطق التي مررنا بها في دولة الزولو.

وكانت النظافة شيئاً ملفتاً للنظر حقاً، كأنها عادة جبلوا عليها في طبعهم. أدهشنا أن نجد مساكنهم نظيفة نظافة مفرطة، في الداخل والخارج. وكانت الساحات بين البيوت خالية تماماً من القذارات والأوساخ.

كنّا نمرّ أحياناً على حلقات من الأهالي، يجلس وسطهم رجال غريبو الهيئة في أزياء بشعة، يخاطبونهم بلهجة غاضبة كأنهم يوبّخونهم لأمر ما. وأحياناً يؤخذ أناس من بينهم فيقتلون في الحال. وسألنا عنهم، فقيل لنا أنهم خبراء في فنون السحر، وأن الناس

الذين يُجرون إلى القتل تلبستهم أرواح شريرة.

وذات يوم، وصلنا إلى معسكر للجيش، مكوّن من نحو مائتي كوخ، ووجدنا جمعاً من الناس يزيد عن المائة، يجلس وسطهم رجل يسائلهم كأنه قاضٍ في محكمة. وكان حين يسأل الواحد منهم، يضرب المسؤول الأرض بعصاه، ويصيح قائلاً «يز - وازي». ثم أشار إلى ثلاثة منهم، فأخذوا وقتلوا في الحال.

علمنا أنهم يسمّونه (أنيانقا) وهو كاهن يتوهمون أنه يخاطب الأرواح، ويطّلع على خبايا النفوس. كان يضع على رأسه غطاء من جلد القرد. وحول رقبته عقد من عروق الشجر، ويمسك بإحدى يديه حربة ودرقاً، وبالأخرى، ذيل بقرة. وقالوا إنه يفسّر الأحلام، ويكشف ما يحدث في البلد. لا تخفى عليه شاردة ولا واردة، في زعمهم. وكان قراره قاطعاً، وحكمه لا يرد.

في الصباح، جاءنا الأمر بالسير. وصلنا بعد ساعتين إلى هضبة، أشرفنا منها على وادٍ واسع مخضرّ، يشقه نهر يسمونه (أمفلوزي). وأمرنا أن ننتظر تحت شجرة. رأيت على البعد مقر (شاكا) الذي قدّرت أن محيطه نحو ميلين.

خلال انتظارنا، ظل المبعوثون يجيئون ويذهبون بين (شاكا) وبين (مبكوانا). وأخيراً وصل رسول يطلب من (مبكوانا) أن يصحبني ومستر (فارْول) إلى مقابلة (شاكا) فسرنا معه، وتركنا مستر (بيترسن) مع الخدم والهدايا.

دخلنا حظيرة واسعة، في وسطها نحو ثمانين ألف جندي في لباس

الحرب. طلب مني (مبكوانا) أن أركض بحصاني وسطهم، وحين بدأت الركض، صاحوا بصوت واحد (أجوجو وكهالو). وعلمت بعد ذلك أنهم لقبوني بـ (عصفور التل الطويل الذنب) كناية عن الشجاعة والإقدام.

ثم قادنا (مبكوانا) إلى معسكر أكبر، استقبلونا فيه بالصمت المطلق. بدأ (مبكوانا) يتحدث إلى شخص لا نراه، في خطبة طويلة كأنه يمدحه فيها، فقد كان يطلب منا بين كل حين وآخر، أن نقول (يببو)، كأننا نؤمن على قوله، رغم أننا لم نفهم شيئاً مما يقول.

بينما (مبكوانا) يلقي خطبته، لمحت شخصاً عن بعد، قدّرت أنه (شاكا)، فقلت لـ (فارْول): «أنظر هناك. لا بد أن ذلك شاكا». سمع (شاكا) قولي، فرفع يده فرحاً، وأشار بإصبعه، كان (فارول) ضعيف البصر، ويضع نظارات على عينيه، فلم يرَ شيئاً.

جاءوا في الحال بسن فيل وضعوها أمامي، وأخرى وضعوها أمام (فارْول). ثم ضرب (شاكا) بعصاه في الهواء يميناً ويساراً، وفوراً انتظم الجند في طوابير عسكرية في عدة كتائب. ثم أشار (شاكا) بعصاه، فاندفعت بعض الكتائب ناحية النهر والتلال المحيطة، والباقون تحلقوا في حلقة، وأخذوا يرقصون. ودخل (شاكا) الحلقة وأخذ يرقص وسطهم.

يواصل (هنري فرانسس فنْ Henry Francis Fynn) وصفه للقائه بالملك «شاكا»، فيقول:

«كان أمراً مدهشاً إلى أقصى حد أن نجد شعباً نصِفُهم بأنهم (همج) قد بلغوا درجة عالية من الضبط والنظام.

دخلَت الحَلبة كتائبُ عسكرية من الفتيات، لها قادة من النساء أيضاً، بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف، وانخرطن في الرقص، وظللن كذلك نحو ساعتين.

في تلك الأثناء، تقدّم (شاكا) نحونا، وقال لنا ألّا نخاف زحام الناس، فإنهم لن يمسّونا بأذى، وكانوا بالفعل قد أخذوا يزحفون نحونا على هيئة تدعو إلى القلق. وكانوا يسوقون أمامهم قطعاناً من

البقر. كانوا يرقصون ويغنون، ويتحركون في موجات عظيمة تروح وتجيء، كما يندفع موج البحر على الشاطىء. كانت الأرض على مدّ البصر، مغطاة بالبشر، وبقطعان البقر التي صُنّفت حسب ألوانها، كل قطيع له لون واحد.

مضوا هكذا نحو ساعتين، ثم تحلّقوا حلقة واسعة وأخذوا يرقصون رقصة الحرب. حينئذٍ دخلت كتائب النساء من جديد، كل منهم تمسك بعصا طويلة تلوّح بها على إيقاع الغناء. ثم ما لبثن أن أفسحن الطريق لحريم الملك، فدخلن ومعهن حاشية من مائة وخمسين امرأة من (الأخوات). تشكّلن في مجموعات، في كل مجموعة ثماني نساء، يلبسن عقوداً من الخرز ذات لون واحد، تتدلى إلى الرُّكب. وكل امرأة تضع على رأسها غطاء من الريش الأسود، وعلى رقبتها أربعة أطواق من النّحاس. وحين حمي الرقص، دخل الملك بينهن مع عدد من رجاله.

كان الترجمان خلال ذلك يلفت أنظارنا إلى روعة المشهد ويفسّر لنا مغزى حركات الرقص وإيقاعات الموسيقى. وجاءنا الملك، وسألنا وهو مملوء بالزهو:

«هل رأيتم مشهداً بهذه الروعة في أي مكان في الدنيا؟ ألست أنا أعظم ملك على وجه الأرض؟ أليس شعبي أعظم شعب؟ إنهم بعدد النجوم لا حصر لهم».

تفرق الناس بعد ذلك، وأشار الملك إلى أحد رجاله أن يصحبنا إلى مقر إقامتنا. أرسل لضيافتنا ثوراً وكبشاً وخبزاً وجرة من خمر الذّرة. وبعد أن تعشينا أطلقنا الصواريخ وضربنا بثمان من بنادقنا. وكان

(شاكا) يحث الناس على الخروج للفرجة. ولكنه لم يخرج، ربما بدافع الخوف.

في الصباح طلب منا أن نذهب إليه، فوجدناه جالساً تحت شجرة ضخمة، وحوله نحو مائتين من رجاله، ويبرك عند قدميه رجل يظلّله بترس، من وهج الشمس. كان منظره مهيباً حقاً. حول جبينه عصابة من جلد السنجاب، وعلى رأسه ريشة طولها قدمان، وإكليل من ريش أحمر. وعلى كتفيه وشاح من جلود القرد تتدلّى إلى بطنه، وعلى الذراعين حُزُمٌ من أذيال ثيران بيض، وعلى خصره حزام من جلد القرود تتدلى منه سيور تصل الركبتين. تتدلى على الساقين ربطٌ من أذناب البقر تصل إلى الكعبين. وكان يمسك في إحدى يديه بترس بيضاء لها نقطة سوداء في الوسط ويمسك برمح في اليد الأخرى. كل كذلك أسبغ عليه هيبة ملوكية، وبأساً عسكرياً لا يُنكر.

عادت الفرق العسكرية التي لم تشارك في الرقص، من النهر والتلال تسوق أمامها قطعاناً من البقر لا يحصيها العدّ. ولم يلبث أن بدأ عرض آخر، غاية في الروعة. كتائب من الجند تسوق أمامها كتائب من البقر، وكل قطيع من البقر من لون واحد، يماثل لون التروس التي يحملها الجند. وكل كتيبة تحمل تروساً من لون مميز. قطعان من بقر لا قرون لها، وقطعان، كل بقرة منها، لها أربعة قرون، وستة قرون. وقطعان من بقر لها نتوءات على جباهها تصل إلى ستّ بوصات. واستمر العرض على هذه الحال، حتى مغيب الشمس.

ذُبح عجلان لعشائنا. وحين أخذنا نتهيأ للنوم، جاءنا رسول من (شاكا) يطلب منا أن نصحبه للقاء الملك. حين وصلنا، أدخلوني

وحدي إلى بيت الحريم، فوجدت شاكاً جالساً على كرسي من الخشب المحفور، وحوله نحو أربعمائة امرأة، واثنان من قادة الجيش وخادمان.

خاطبني باسم (سوفيلي)، وهو الاسم الذي اختاروه لي بدلاً من اسمي الأصلي (فِنْ). طلب مني أن أجلس أمامه. قال:

«علمت أنك جئت من قبل أبينا جورج. هل هو ملك عظيم مثلي؟».

قلت له «نعم. الملك جورج من أعظم الملوك في العالم».
«أنا غاضب منك. سوف أخبر أبانا جورج فيأمر بقتلك».
«لماذا؟».
«إنه أرسلك لتكون طبيبي، وليس طبيباً لكلابي. لماذا أعطيت الدواء لكلابي؟».

«أعطيت الدواء لامرأة مريضة. هذه تقاليد بلادنا. نساعد المحتاجين إذا استطعنا».
«هل أنت طبيب كلاب؟ إنك جئت لتكون طبيباً لي».
«أنا لست طبيباً ولم أتعلّم الطب. أهل بلدي لا يعتبرونني طبيباً».
«هل معك دواء؟».
«نعم».
«داوني إذاً، وإلّا سوف أرسل إلى أبينا جورج فيأمر بقتلك».
«ما هو مرضك؟».
«عليك أنت أن تعرف».
«قف ودعني أفحصك».

«لماذا أقف؟».
«حتى أعرف ما هو مرضك».

وقف، ولكن كان واضحاً أنه ممتعض من قربي منه. جسست مواضع من جسده على ضوء المشاعل التي رفعتها الفتيات. وقدّرت أن الطاقة العظيمة والنشاط الذي بذله طوال اليوم، يدل على أنه في صحة جيدة. ولكنني لاحظت آثار الكيّ على فخذيه. قلت له: «بك ألم في الفخذين».

وضع يده على فمه من الدّهشة، وأظهر الحاضرون إعجابهم بمهارتي. ثم أمرني بصرامة ألا أعطي الدواء لمن أسماهم (الكلاب). وبعد أن مازحني بطريقة تدلّ على أنه لا يخلو من روح الدعابة، أذن لي أن أنصرف».

٣٧

يواصل مستر (هنري فرانسس فنْ Henry Francis Fynn) حديثه عن لقائه بالملك (شاكا) ملك الزولو فيقول:

«ظل الجيش ساهراً طول الليل، ولا أظن أن أحداً قد أغمض له جفن. ذُبحت أعداد هائلة من الثيران، واشتعلت الأضواء على امتداد الرّقعة المحيطة بمقر (شاكا)، وتحلّق الجنود في معسكراتهم حول النيران يتحدثون ويسمرون.

كان الملك قد ضرب لنا موعداً في اليوم التالي لتقديم الهدايا التي جئنا بها. ومن حسن الحظ أن (فارْول) قد أحسن انتقاءها كي تليق بمقام ملك رفيع مثل (شاكا). جئنا بكميات عظيمة من الخرز من كل الأشكال والألوان، أرقى بكثير من الأصناف التي أهداها إليه البرتغاليون من (دلْقاو). وأحضرنا تلالاً من البطاطين الزاهية الألوان،

وكميات من قضبان النحاس اللامع المصقول، وصفائح النحاس، وأعداداً من الحمام والقطط والكلاب، وخنزيراً واحداً.

لم ننس أن نجيء لـ (شاكا) بزي عسكري كامل، ياقاته موشاة بخيطان مذهّبة. تقبّل الملك هدايانا بعدم اكتراث يقرب من الاحتقار، لكننا أحسسنا أنه كان راضياً في قرارة نفسه. اهتم اهتماماً واضحاً بالحيوانات، وخاصة بالخنزير. لكن لسوء الحظ انفلت الخنزير ودخل مخازن الحليب، فكسر الجرار وأراق اللبن وأرعب النساء فأمر الملك بذبحه.

اتّصل الرقص والغناء وعروض البقر طوال اليوم، وجاءت ألْوية من الجيش من أماكن بعيدة وشاركت في الاحتفال. وكنا قد أحضرنا عدداً من الصواريخ النارية، ولكننا رأينا ألّا نقدّمها مع بقية الهدايا. وحين عُدنا إلى مكان إقامتنا في المساء أطلقنا عدداً منها. وكنّا قد استأذنا (شاكا) وطلبنا منه أن يشجع أفراد شعبه ليروا نيران الصواريخ، فكانت دهشتهم بذلك لا حدّ لها. لكنني لا أدري إن كان من الحكمة عرض هذه الأعاجيب الأوروبية على قوم همج كهؤلاء القوم، خاصة أننا لم نلتق بهم إلّا منذ عهد قريب، ولم نعرفهم بعد، معرفة حقيقية.

في لقاءاتي معه، كان (شاكا) حريصاً جداً أن يعرف حقيقة مقاصدنا، ولماذا جئنا أصلاً إلى تلك البلاد، وأشار علينا أن نقيم في الميناء ولا نتجاوزها. وكان يدعوني للقائه كل مساء، فأقضي معه ثلاث أو أربع ساعات، يترجم بيننا الـ (كافر)(*) جيكوب.

في أول يوم لزيارتنا، رأينا نحو خمسة رجال يؤخذون ليُقتلوا. تكفي

مجرد إشارة من الملك، بإصبعه مثلاً، حتى يُحاط بالرجل، ويُلْوى عنقُه ويُدقّ رأسه بعصاة غليظة بها رأس في حجم قبضة اليد. ثم تُحمل الجُثة ويُلقى بها على قمة هضبة غير بعيد. وقد زرنا المكان فيما بعد، فوجدنا مشهداً مروِّعاً، جثثاً متراكماً بعضُها فوق بعض، تحوّم فوقها جحافل من الصقور.

صدم المنظر مستر (بيترسن) صدمة عظيمة لم يقْوَ على تحمُّلها، ففضّ شراكتنا في الحال، ونفض يده من المهمّة التي جئنا من أجلها، وأصرّ على العودة إلى (كيب تاون).

في اليوم الخامس لمجيئنا، دعاني (شاكا) وطلب مني أن أذهب برفقة عدد من أتباعه إلى قرية نائية لعلاج زعيم يُدعى (موبانْقازيتا). وجدته محموماً، قد ارتفعت حرارته ارتفاعاً فظيعاً.

فصدتُه، وأعطيته بعض الدواء، فطفح عرق غزير من جسمه. ورويداً رويداً انخفضت حرارته، وهدأ، وبدا عليه التحسُّن. وعلمت بعد أيام أنه تعافى تماماً. كان (موبانقازيتا) أثيراً لدى الملك، فسرّه جداً علاجي له، وارتفع مقداري في نظره.

حين جئنا لوداعه، أهدى إلى كلٍّ منّا ـ أربعين رأساً من البقر، وخمساً من سن الفيل، ووعد أن يرسل معنا عدداً من جيشه ليصطادوا لنا الأفيال. لكنني لم أنصرف في حيني، فبعد أن سرت مسافة مع مستر (فارْول)، عدت إلى (شاكا) بعد مغيب الشمس، وجلست معه أسائله ويسائلني إلى وقت متأخر من الليل».

(*) كافر (Caffer) أو (Kafir): وصف أشاعه العرب المسلمون على القبائل الأفريقية التي لم تدخل في الإسلام. وأخذه الأوروبيون وخاصة البوير، وسموا به القبائل التي تقطن منطقة (رأس الرجاء الصالح!) ثم عمَّموه ـ من قبيل الاحتقار ـ على شعوب الجنوب الأفريقي على إطلاقها. وجدير بالذكر أن شعوب هذه المنطقة، لم تكن لها أوثان تعبدها، وإنما تعيش على الفطرة، وإن كانت لها عقيدة فهي مثل الشنتُويّة في اليابان، تقوم على تقديس الطبيعة وتمجيد الأسلاف.

استمعنا إلى (هنري فرانس فِنْ - Henry Francis Fynn) يصف أول لقاء أوروبي مع الملك (شاكا)، وهو وصف يجب ألّا يؤخذ على علاّته، إذ إن (فِنْ) يوحي بأن الهدف من تلك الزيارة، لم يكن أكثر من إقامة علاقات تجارية مع مملكة الزولو، ويخفي المقاصد الحقيقية، ألا وهي الحصول على موطىء قدم ينطلق منه النفوذ البريطاني، كما حدث بعد ذلك بالفعل.

وجدير بالذكر أن (فِنْ) ظل مقيماً في ميناء (ناتال) إلى أن صارت مستعمرة بريطانية. وفي عام ١٨٣٤، عيّنه حاكم المستعمرة (سير بنجامين ديريان) مستشاراً له بوصفه خبيراً في الشؤون الأفريقية. وفي عام ١٨٦٢، صار قاضياً في الإدارة البريطانية لمستعمرة (ناتال).

لنستمع الآن إلى المؤرخ الشاعر الزُّولي الكبير، برفّسر (ماسيسي كونيني) يروي القصة من وجهة نظر الجانب الآخر، في ملحمته الشعرية عن (شاكا). ويلفت النظر في روايته، أن (شاكا) لم يكن غرّاً ساذجاً كما قد يتبادر إلى الذهن من رواية (فِنْ)، ولكنه كان يدرك حقيقة المقاصد الأوروبية، وكان يواجه المكر بالمكر.

يتّضح لنا من رواية (ماسيسي كونيني)، لماذا سار (مبكوانا) خال(*) (شاكا) بالبعثة في طريق طويل، وتسكّع بهم على القرى ومعسكرات الجيش. كان (شاكا) يريد إنهاكهم قبل أن يصلوا إليه. وكان يريد أن يبعث في نفوسهم الرّهبة لعظمة دولة الزولو وقوتها العسكرية ورفاهها وعمرانها. وكان جواسيسه المنبثون حول البعثة، ينقلون له، أولاً بأول، ردود أفعال أولئك الغرباء ذوي الآذان التي سلّختها أشعة الشمس، كما كانوا يصفونهم.

كذلك يتّضح أن (فِنْ) أغفل أن يذكر أن محاولة لقتل (شاكا) قد حدثت أثناء زيارة البعثة البريطانية. ويوحي (ماسيسي كونيني) أن ذلك تمَّ بتدبير منهم، لإسداء جميل لـ (شاكا) بمداواته من جراحه، ثم مطالبته برد الجميل، بتوقيع تعهّد ينص على منح ميناء الناتال للبريطانيين ليمارسوا نشاطهم منها. كان ذلك أخطر مما تمخّضت عنه تلك الزيارة... يقول (ماسيسي كونيني):

منذ سنوات، والإشاعات تترى
إن (سُلالة القَرع) قد دخلت البلاد.
وقال الرُّواة إن الملك (شُبْهوزا) الأكبر
كان قد تنبّأ بذلك
قال للنّاس في مجلسه ذات يوم، وقد بدا عليه الهم:

(رأيت في منامي حُلماً أزعجني،
إن أُمماً تخرج علينا من البحر،
على هيئة البشر مثلنا، ولكنهم صفر الألوان
مثل عصيد القرع.
كلامهم مثل شقْشقة الطيور في أعشاشها.
حركاتهم سريعة متوترة.
وأصواتهم حادة غاضبة كأصوات الوحوش
غلاظ أفظاظ، ليس فيهم سماحة ولا رحمة.
سلاحهم عصاة ناريّة طويلة
يقتلون بها، وينهبون ويعيثون فساداً في الأرض.
أحياناً لا يتورّعون عن اختطاف الأطفال
ليوقدوا بأجسادهم نيران أفرانهم البحرية.
يا لها من سُلالة عجيبة حقاً!
سلالة من اللّصوص وآكلي لحوم البشر)

اضطرب المجلس لبشاعة الحلم،
وقال بعضهم أن ذلك لا يمكن أن يحدث في الواقع.
ولكن آخرين أكّدوا صدقه
وقالوا إن العرّافين القُدامى تنبّأوا بمثل ذلك.
ذكروا أنّ في ذات يوم، والبحر ساكن والرّيح هادىء،
فجأة طلع من الماء خَلْق من جنس غريب،
شعورهم تتدلّى من رؤوسهم كسنابل الشعير
جاءوا على هيئة شحّاذين مساكين
يستجْدون الماء والطعام،
ثم ما يلبثون أن يغتصبوا الأرض والقرى،
لأن بطونهم لا تمتلىء، ونهمهم لا ينقضي،

الطعام عندهم أغلى من الإنسان،
لذلك لا يبالون أن يبيدوا شعوباً بأكملها
ليحصلوا على الطعام.
هكذا قال العرّافون الأولون، وتناقل النّاس نبوءاتهم
ووصلت إلى (شاكا) وهو بعدُ في جيش (دنقزوايو)
وطالما تفاكر مع الملك الشيخ عن أمر هؤلاء الغرباء.
والآن يدخل عليه (مهلوب) كبير جواسيسه،
قال له «مولاي. قد حلّ بأرضنا وباء من البرغوث.
هذه الحشرات، في هذه اللحظة تتكاثر
عند مصب نهر (منْقيني).
تقفَّيتُ آثارهم كما أمرتني، وخالطتُهم
وراقبت أحوالهم، بعضهم تعلّم لغتنا».

سأله بعض من في المجلس:
«سمعنا أن هؤلاء الغرباء، حمر الألوان
ولهم شعور طويلة مثل أذناب الخيل
وأنهم يلبسون أحذية كأحذية آبائنا الأولين، ويسكنون في خيام من جلود بيض
يحملونها معهم من مكان إلى مكان»

أجابني (منقيني): «نعم. إنهم كذلك، ولهم جلود رهيفة كأن الشمس قد سلّخت أجسادهم، ورغم ذلك فهم، كما يبدو، بشر مثلنا».

هنا خاطبهم (شاكا) قائلاً:
«أنتم تتحدّثون حديث أطفال.

هذه الأمم لا تختلف عن غيرها
هل نخشاهم ونحن أبناء شعب الزولو العظيم
أعظم شعب على وجه الأرض؟
هؤلاء قوم جياع، ضاق بهم الحال في أرضهم
فجاءوا إلينا يطلبون الطعام.
سوف نتصدّق عليهم من خيرات أرضنا
فلدينا منها ما يفيض عن حاجتنا.
اذهبْ يا (مبكوانا) إلى (تُنْقولُو)
وقل لهؤلاء الغرباء أنني أدعوهم في ضيافتي.
لا بدّ أن نتعرّفهم عن قرب،
ونعرف منهم أحوال هذه البلاد البعيدة
ونفهم حقيقة مقاصدهم».

وكذلك انطلق (مبكوانا) إلى السّاحل ليدعو الغرباء، ذوي الآذان المبرّصة، إلى ضيافة الملك.

(*) في ترجمتي لمقالة (فنْ) ذكرت أن (مبكوانا) هو (عمّ) شاكا، فكلمة Uncle الإنجليزية، تعني العم والخال. ثم وجدتُ أن (ماسيسي كونيني) يثبت أنه (خال) شاكا.

يواصل (ماسيسي كونيني) في ملحمته الشعرية، وصف لقاء ـ (هنري فرانسس فنْ) وبعثته التجارية، للملك (شاكا) ملك الزولو. وكان ذلك في عام ١٨٢٠. يقول:

«قاد (مبكوانا) الغرباء في الطريق
المتجه شمالاً. عبروا نهر (أماتيقو)،
وتوقّفوا قليلاً في (نيينزاني)، ثم ساروا عبر قرى نتوتليني العامرة،
وكان الناس يعجبون لغرابة هيئتهم.
وما لبثوا أن اجتازوا المدينة الملكية
حيث الأميرة (ماوا) متّجهين نحو
(ملالازي) في سفح جبال (نقويي).
من ثمة ساروا قاصدين رباط الملك،

مدينة (بولاوايو) المجيدة.
نظروا إليها فرأوها كأنها مشدودة بحبال
من أشعة الشمس.
وكانت الجموع من أقطار بلاد الزولو كلها،
تموج وتهدر مثل البحر،
وكتائب وراء كتائب من الجند
تجيء من معسكراتها النائية
لتجدد الولاء للملك.

انطلقت ألسن الخطباء، وفاضت قرائح الشعراء، وقال شاعر منهم (إن شاكا العظيم
موحّد شعب النخيل، حامي الحمى وقاهر الأعداء،
سوف يقضي على الغرباء المعتدين).
ظل الغرباء ينتظرون تحت الشجرة
الكبيرة عند باب المدينة.
وحين جاءهم الإذن، ومثلوا بين يدي الملك،
وقف (مبكوانا) خطيباً. قال:
«أيها الملك العظيم! يا رُمح الزولو! يا حفيد ملانديلا!
ها أنا قد وصلت. أحضرت لك، كما أمرت،
هؤلاء الرّجال الضعفاء المساكين،
هؤلاء المبرّصين الذين تخترق
أشعة الشمس آذانهم،
تركوا بلادهم البعيدة وجاءوا
يستظلون بظلك.
أيها الأسود الأوحد المهيب».
والتفت (مبكوانا) إلى الغرباء وقال لهم:

(هل تُقرُّون بالطاعة لملك الملوك؟)
وحين أجابوا بالإيجاب، وُضعت في الحال أمامهم،
أسنان الفيل، علامة الرّضى والترّحاب، كما تقضي الطقوس.
ثم ضرب الملك ترْس الحارس الواقع عن يمينه
والحارس الواقف عن يساره
فخرج جميع من في المجلس
وبقي وحده مع الغرباء، ما عدا
مترجمه (هلامبا مانزي).
أصابهم الذعر حين أدركوا أن (هلامبا مانزي)
كان واحداً من الـ (خوزا) الذين
أسروهم، وهرب منهم،
تحدثوا ببطء وحذر، كما يتحدّث الخائف
الذي زعزعه الشعور بالذنب.
أمر لهم الملك بالطعام والشراب
وسألهم أسئلة فاحصة عن بلادهم،
فأجابوه مبالغين في تصوير عظمتها ورخائها وعمرانها،
لكن ذلك لم ينطلِ على (شاكا)
الذي كان يميز ببصيرته النافذة، بين الصدق والكذب.

ولما فرغوا من كلامهم، قال لهم:

(إنني سوف أمنحكم كل ما تطلبون.
ما عليكم إلّا أن تخضعوا لقوانيننا
فتعيشون بيننا في أمن ورخاء.
بلادنا آمنة مستقرة لأن الناس جميعاً
يخضعون للقوانين والأعراف

وأعرافنا تلزمنا أن نحسن استقبال الغرباء
لذلك سوف تُقام وليمة كبيرة للترحيب بكم.
وأنتم أيضاً من رعايا أخي الملك جورج
فمرحباً بكم في دولتنا العظيمة
وديارنا العامرة.
سوف تطيب لكم الإقامة بيننا).

وهكذا انخرط الغرباء بين الجموع، في
احتفال الزولو الكبير.
آلاف الرجال والنساء جاشوا،
كما تجيش الغابات في الصيف.
إنما وراء ذلك كله، كانت عينا (شاكا) يقظتين.
تتابعان مكر هؤلاء الدخلاء
قال لمستشاره الأمين (مقبهوزي)
الصَّلب ربيب الجبال:
(إننا نواجه غزواً من جيش من النّمل الأحمر،
خلقاً يدفعهم اليأس أن ينخروا الصخر
لا مثيل لشراسة الإنسان حين يعضُّه الجوع.
يتخشّب جسده، ويسلّ عقله مُدىً
حادّة تطل من العيون.
هؤلاء الناس يخفون وراء أصواتهم
الناعمة وكلماتهم الخافتة
نوايا خطرة تفصح عنها عيونهم.
إن نظراتهم نظرات أناس بلغوا منتهى اليأس
لا بد أن نتعامل معهم بحذر.
هل رأيت أحذيتهم الثقيلة؟

إنها تعطّل حركتهم في القتال ولا شك،
ولا بد أن أقدامهم صارت ناعمة كأقدام الأطفال.
هل سمعتهم يحدّثونني طويلاً عن
الثراء والرخاء في بلادهم؟
إنما الأمم التي تعيش في ثراء ورخاء،
لا تترك أرضها وتطوف في البلاد.
إنهم وحوش يتلذذون بمشاهد الدماء والعنف
وسلاحهم الناري إن دلّ على شيء،
فإنما يدلّ على الجبن،
يضربون به من بعيد.
لكنه لن ينفعهم في مواجهة جيوشنا
التي تعصف مثل الريح.
وبينما هم يعيدون ملء قاذفات نيرانهم
تكون قوّاتنا قد انقضّت عليهم،
وداستهم بأقدامها.
انتصروا على الـ (خوزا)
لأن أولئك لم يتعلّموا سرعة الحركة مثلنا.
حين يواجهوننا، سوف يجدون عدوّاً من نوع آخر.
لكن لا بأس أن نتعلم منهم، ونأخذ من أساليبهم.
إنما السلاح ليس هو كل شيء،
قوّتنا الحقيقيّة تنبع من أنفسنا.
الذين يضعون كل ثقتهم في السلاح،
محكوم عليهم بالفشل،
لأن السلاح حين يتكسّر في أيديهم،
لا يبقى لهم شيء، فتحلّ بهم الهزيمة.
والآن، لينبثّ الجواسيس بينهم ليراقبوهم

ويحصوا كل صغيرة وكبيرة عنهم،
ويأتوني بأخبارهم
في أثناء ذلك، سوف أرسل الهدايا
للملك جورج هذا.
أرجو أن يربكهم هذا، ويجعلهم
يترددون في غزونا
إن كانوا قد قرروا ذلك.
في تلك الأثناء، نتغلغل إلى خبايا نفوسهم،
ونعرف حقيقة نواياهم وخططهم.
إنك إذا عرفت خطط عدوّك
فقد ملكت أهمّ أسباب النصر».

في شهر أيلول/ سبتمبر عام ١٨٢٨، كان (شاكا) ينتظر وصول وفد من الـ (مُبندر). استبطأ الوفد فخرج يستوضح أخباره، ليس معه حرس، ولا يرافقه سوى بعض الشيوخ من مستشاريه.

كان قد بلغ ذروة مجده وسلطانه، وهو بعد لم يتجاوز الأربعين من العمر. امتدت دولته من الساحل إلى جبال (دراكنْسبيرج) في الغرب، ومن وراء نهر (أُمغلوزي) في الشمال إلى حدود مستعمرة الـ (كيب) في الجنوب، وأخضع لطاعته قبائل المنطقة كلها، بما فيها القبائل الكبرى، قبائل الـ (متابيلي) والـ (بسوتو) والـ (سوازي) والـ (مططوا) والـ (خوزا).

لم يحس بالخطر من الوجود الأوروبي على الساحل، وكان يؤمل أن يستفيد منهم، ويحصل منهم على الخبرة والسلاح. وقد بلغ من ثقته

بنفسه أنه استغنى عن حرسه الخاص، وأخذ يغير في النظام العسكري للدولة، ويفكر أن يبيح لجنوده الزواج، ويتيح لشعبه فترة من الاستقرار والهدوء، بعد أن أرهقهم بالحروب.

لكنه لم يكن سعيداً. كان يحسّ بالوحشة. ماتت أمه (ناندي) التي كان يقول عنها أنها (توأم روحه) وقتل في الحرب عددٌ من أصدقائه وقوّاده ومنهم، (مُقُبْهوزي)، أقربهم إليه. ولم يدرك أن عمته (مكاباي) وأخاه (دنقاني) الذي كان (شاكا) قد حقن دمه في بداية عهده، وخادمه المطيع (أمبوفا)، أنهم يدبرون لقتله. باغتوه وهو بعيد عن مقره، يتعجل وصول الوفد من الـ (مبندر). يقول (ماسيسي كونيني):

«توالت الطعنات من كل جانب على جسد (شاكا)
ابن (سنزانخونا).
وتفجرت الدماء من كل موضع حتى من فمه.
وحين انكشفت له الحقيقة بعد فوات الأوان
وانقشعت الغشاوة عن عينيه
ابتسم ابتسامة مفعمة بالمرارة والأسى
وقال (أنتم إذا يا أبناء أبي تقتلوني!
تظنون أنكم تحكمون دولة الزولو بعد موتي؟
هيهات! لن تستطيعوا.
سوف تملكها الخفافيش!)
قال هذا وسقط بلا حراك
ورغم ذلك ظلّوا يطعنونه مرّة بعد مرّة.
خيّل لهم أنه قد يهبّ فجأة وينقض عليهم.
يا للخسارة! ظل راقداً بلا حياة،

البطل الباسل، ابن (أندابا) سيّد الرجال،
(شاكا) العظيم، حاكم الحكّام وملك الملوك.
لم تبق عينٌ لم تُهرق دمعها
وانهمرت دموع الشاعر وهو يخاطب (شاكا)
بلسان الشعب:
(حين صرخت من قمة جبال (ماندَلا) و(زميما) افترق الصيف عن الشتاء.
هاجرت الطيور من الحقول
وبقيت خرائب (تابي) تحدّث الأخبار.
أخذت الأعداء على حين غرّة في أدغال البوص
ودحرت (سيقاووزانا) سيد عشيرة (مباثا) العنيد.
أنت العميق مثل نهر (ماياي داني)
المر مثل مرارة كبد الوعل
البازي الذي ينقضّ من السماء.
أهلكت جيوش (مذْ لاوّ لاْما) زعيم الـ (مبيدو)
وسلكت الدُروب الوعرة إلى بلاد (ماذْلبخيلا)،
وظلُّك غطى سهول (نياباسي).
فتحتَ الطرق المغلقة بأسنّة الرماح
وأمرت الجيش أن يقطف الذرة قبل نضجها
وعبرت نهر (أمفلوزي) العصي
الذي يأبى العبور إلّا لمن يُحب
حين تفتح عينيك، يرتعد أعداؤك.
ويصمت الثرثارون،
وتهرب الكلمات من أفواه المدّعين
سُقتَ قطعان البقر غصباً، وكنت في غنى،
وناديتَ الطير فأجابك، في قمم (نقوي)

وأمرتَ جيوشك أن ترقص على هضاب (تابي)
فالتفت العالم كلّه متعجّباً.
تجلس متحفزاً وترسُك على ركبتيك
يا سليل (أندابا) المُخيف.
فعلتَ كلّ الذي قالوا إنك لن تقوى على فعله،
وأخضعت البحر وتركته للضعفاء يعبرونه.
بدأت رحلتك في عزّ النهار
والشمس في كبد السماء
يا سيف (سنزانخونا) الذي براه حزُّ الرؤوس.
غسلت وجهك في نهر الدّموع،
أيها الوحيد! أيها الأسود».

بكى الشاعر وأبكى الناس،
وغطّى (دنقاني) و(ماهلنقاني) و(أمبوفا)
وجوههم من الخجل،
وأراد الأخوان أن يُلقيا الإثم
على (أمبوفا) ولد (سيثايا)
ويَفديا به عارهما،
فأمرا بقتله،
ونفّذ عملاءُ العهد الجديد أوامر أسيادهم في صمت.
أقام الجيش المناحات وأنشد أناشيد الحرب،
وأعول أمير الشعراء (نمنكساماما)
وألقى بنفسه على جسد (شاكا)
وأخذ يصرخ ويسبُّ ويلعن.
قال: أبداً لن يطيب لكم العيش
أبداً لن يستقر لكم الحكم.

سوف تسبحون في بحار من الدماء
سوف يرعبكم ظلّه ويقض مضاجعكم
سوف تموتون ملعونين ميتة الكلاب.
اسمعْ كلامي يا (مهلنقاني) الشقي ابن (سنزانخونا)
اسمع كلامي يا (دنقاني) الصعلوك ولد (سنزانخونا)
الفروع لا تعيش بعد قطع الشجرة الأم.
وإذا أغضبكم قولي فاقتلوني
فلا معنى للحياة بعد موته.
ظل الشاعر يبكي ويندب ويلعن هكذا،
والناس ينوحون معه.
ثم فجأة صمت
وأدار عينيه في حشود الناس حوله،
والتقط خنجراً يلمع
وشقّ به حلقه.
حينئذٍ صار البكاء والعويل أمراً لا يمكن وصفه».

سوف أختتم حديثي عن (شاكا) ومملكة الزولو، بالاستشهاد بفقرات من ذلك الكتاب البديع للمؤرخ الإسكتلندي المرموق، برفسر (ڤي جي كيرنان V.G. Kiernan). وهو في تقديري من أحسن الكتب عن تاريخ الاستعمار الأوروبي، وقد أشرت إليه من قبل، في حديثي عن الـ (أبوروجينز) سكان أستراليا الأوائل. هذا المؤرخ الفذ، بالإضافة إلى سرده الشيّق للأحداث، وروح الإنصاف التي يتميّز بها، لا يخفي تعاطفه الكامل مع الشعوب التي غُلِبت على أمرها.

كان برفّسر (كيرنان) حين أصدر كتابه هذا «سادة الجنس البشري» أستاذاً للتاريخ المعاصر في جامعة أدنبرا.. والعنوان يتضمن سخرية لا تخفى، من أولئك الذين ظنوا لوهلة أنهم سادة العالم. يقول:

«كان من سوء حظ المستوطنين الهولنديين، في أقصى الجنوب

الأفريقي، أنهم وصلوا في زمن كان الأوروبيون يعتبرون الرقّ فيه، أمراً طبيعياً، وظل سوء الطالع هذا يلاحقهم. وحين وصل البريطانيون في بداية القرن التاسع عشر، وجدوا أن الهولنديين قد قطعوا صلاتهم بوطنهم الأم. لم يسلم البريطانيون أيضاً من لعنة الرقّ، لأن الأمبراطورية لم تحرّمه إلّا بعد ثلاثة عقود من هذا التاريخ.

إلّا أنهم امتازوا عن الهولنديين، بأنهم حافظوا على صلاتهم بوطنهم الأصلي، بما فيه من تيارات سياسية وفكرية، الأمر الذي جنّبهم الوقوع بالكليّة، في مستنقع العزلة والجذب الروحي، الذي وقع فيه الهولنديون، ولكنهم أخفقوا في أن يُحدثوا أي تأثير على البوير.. الهولنديين. ومهما كان من أمر البريطانيين مع السكان الأصليين في البلاد التي استعمروها، فلا شك أنهم فشلوا فشلاً عظيماً مع العنصريين الأوروبيين، وهما، البوير في جنوب أفريقيا والفرنسيون في كندا.

هذا الطرف القصيّ من القارة، كان موطناً لأخلاط من أكثر الشعوب بدائية وتخلفاً. الـ (بوشمن.. Bushmen) والـ (هوتنْتوت Hottentot)، الذين دُفعوا دفعاً إلى أقصى جنوب القارة، وبعض قبائل الـ (بانتو) النشطة التي أخذت تضغط من الشمال. كان الـ (هوتنتوت) عنصراً هجيناً من تلاقح الـ (بوشمن) مع سلالات قديمة أغارت على تلك المنطقة في عهد غابر. وقد عبّر (روبرت ريد) في كتابه (استشهاد الإنسان) عن النظرة الأوروبية الغالبة عنهم حين قال «إنهم شعب من الأقزام، ذوو عيون قلقة لا تستقر كعيون القرود». وقد دخل اسمهم المعجم الإنجليزي بكلمة تعني «الغبي. الذليل. الحقير».

لم تكن لهم قدرة على حماية أنفسهم ضد هجمات البوير، الذين أجّج من سعار غرائزهم الشرسة، أنهم وجدوا قوماً مستضعفين يسهل إخضاعهم واسترقاقهم. لم يكن الحال كذلك مع البانتو، الذين وجد فيهم الأوروبيون قوماً من معدن آخر. لا غرو أن الحروب التي أسماها الأوروبيون (حروب الكافر) لم تتوقف طيلة مائة عام.

في عام ١٨٥٠، انتهز الـ (هوتنتوت) فرصة الصراع بين البانتو والبوير، فقاموا بثورة لم يقدّر لها النجاح، فقد أخمدها البوير بما عُرف عنهم من شراسة، وكذلك انتصروا على الـ (كافر) وأخضعوهم لنفوذهم.

لم يكونوا يعاملونهم كبشر. ويجد الإنسان صورة واضحة لنظرة البوير للأفريقيين في رواية «قصة مزرعة أفريقية» لـ (أولف شرايْنر) التي صدرت عام ١٨٧٠. حين اجتمعت أسرة من البوير للصلاة، لم يُدْع العمال الأفريقيون للمشاركة. وتبرر الكاتبة ذلك بقولها (لأن تانت ساني قالت إنهم ينحدرون من سلالة القرود ولا يحتاجون إلى الخلاص).

ربما يكون (دارْون) قد وجد معارضة من بعض الجهات الكنسية أن يكون الإنسان منحدراً من سلالة القرود، ولكن بعض الأوروبيين وصلوا قبله إلى هذه القناعة فيما يتعلق بالأفريقيين. وقد بقيت كلمة (كافر) المحرّفة عن الكلمة العربية التي تعني (وثني) تعبيراً عن الاحتقار، ودليلاً على الجهل الأوروبي.

في عام ١٨٣٦، قام جزء من البوير بهجرتهم الكبيرة إلى الشمال

الشرقي، حيث أنشأوا جمهوريتين مستقلتين. دفعهم إلى ذلك حافزان، أحدهما نبيل وهو حب الحرية، والآخر دنيء، وهو حقدهم على البريطانيين لأنهم حرّموا الرّق. سوف يصنع أحفادهم أسطورة ضخمة من هذه الهجرة. ويُضْفون عليها رومانسية استعاروها من (بُناة الأمبراطورية). سوف يصفونها بأنها (مغامرة نبيلة من شعب أوروبي، لغرض الحضارة والاستقرار على شعوب همجية فوضوية).

إنما حقيقة الأمر، أن أولئك البوير المغامرين، لم يأبهوا لإيجاد مبررات خلقية. لقد ألقوا بأنفسهم في خضم الفوضى السائدة، كعنصر همجي بين عناصر أخرى همجية. وكانوا أطول باعاً في أحداث الخراب والدمار، لأنهم كانوا يملكون أسلحة متطورة، الخيل والبنادق.

فعلى سبيل المثال، كان من أساليبهم في الحرب، أن يدفعوا أمامهم حاجزاً بشرياً من الأفريقيين، ويطلقوا النيران فوق رؤوسهم على القرى التي يهاجمونها. وحين يدخلونها ينهبون المواشي والنساء والأطفال. وقد كوّنوا فرقاً مسلّحة من الـ (هوتنتوت)، اضطروهم إلى القتال في صفوفهم ضد إخوانهم. كان ذلك أسلوباً أوروبياً في كل البلاد التي غزوها.

كذلك فعل البريطانيون في الهند، حين أجبروا الهنود على القتال معهم ضد أبناء جنسهم.

أباح الهولنديون لأنفسهم بطبيعة الحال، معاشرة النساء الأفريقيات في منطقة الـ (كيب) وأخرجوا من ذلك سلالة مختلطة عُرفت باسم (الملونين) وقد تكاثر عددهم، حتى صارت لهم جمهورية صغيرة

على الحدود. وكان لهم زعيم كفء، حاز على إعجاب الرحالة (لفنجستون). أما البوير المهاجرون، فقد حملوا معهم نساءهم البيض، وكانوا يريدون أن يملأوا الأرض بالجنس الأبيض، فلم يخالطوا النساء السود وتركوهن للخدمة في البيوت والحقول.

لم يجدوا، كما حدث في إندونيسيا، أرستقراطية محلية، تحدُّ من غلوائهم، ويضطرون إلى مهادنتها ومخادعتها، ولكنهم هنا أطلقوا العنان لميلهم الطبيعي نحو العنصرية والتمييز العرقي وتحريم الاختلاط الجنسي.. كما فعل البريطانيون في الهند.

كانوا يفعلون واحداً من أمريْن مع الشعوب التي يخضعونها. الذين يمكن أن يستفيدوا منهم، يسترقُونهم، والذين لا يؤمّلون فائدة منهم، يُبيدونهم. وكان الـ (بوشمن) هم الضحايا في الغالب. كانوا في نظرهم، كما ذكر ابن (جنرال سمتْس Smuts) «مثل الحشرات تجب إبادتهم في الحال».

ولا بد من القول أن البانتو أيضاً ساهموا في اضطهاد الـ (هوتنتوت) والـ (بوشمن). إنهم، والبوير، حوّلوا المنطقة إلى مجزرة رهيبة. ثم جاء البريطانيون فأضافوا إلى الدمار والخراب، وكان ذلك بعلم من الحكومة البريطانية التي تظاهرت بأنها لا تعرف شيئاً.

في عام ١٨٨١، وجّه (سير ج. كامبل) سؤالاً إلى الحكومة البريطانية في البرلمان، إن كانت على علم بالخراب والدمار الذي أصاب الـ (بانتو). أجابه (قرانْت دَفْ) الذي كان يُضرب به المثل لما يجب أن يكون عليه الوزير في العهد الفكتوري، إن المسؤولية تقع على عاتق السلطات (البريطانية) في مستعمرة الـ (كيب) وأن

حكومة صاحبة الجلالة (ليس بوسعها أن تقول إنها ترفض هذه الأعمال أو تقبلها).

في أثناء ذلك، كانت قبيلة الزولو، أشد قبائل الجنوب الأفريقي بأساً، تراقب وتستعد».

فيما يلي، يواصل المؤرخ الكبير برفّسر (V.G. Kiernan) حديثه عن الزولو، فيقدم تقييماً لإنجازات (شاكا) وكيف قضى البريطانيون على دولة الزولو، ويعبّر عن رأي جريء إزاء أضرار الغزو الأوروبي لجنوب أفريقيا:

«كان (شاكا) في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، قد قطع مرحلة كبيرة في توحيد قبائل عشائر الزولو المتنافرة، وصاغ منهم أمة قوية محاربة، بسطت سلطانها على رقعة واسعة، وأدخلت القبائل المجاورة في طاعتها. كان بلا شك، واحداً من أبرز القادة الأفريقيين الذين ظهروا على مسرح الأحداث في هذه الفترة. لم يكن يقل أهمية عن ذلك الزعيم الأسود الآخر (توسان)[1]. الزولو في جنوب القارة. والمصريون بزعامة محمد علي في الشمال، كانوا بسبيلهم إلى صنع أمبراطوريات ذات هيئة ونفوذ، حين اعترض الأوروبيون

طريقهم، وتدخّلوا في مصائرهم. تحركت مصر بفعل احتكاكها بأوروبا، وكذلك الحال مع الزولو، إلّا أن تأثرهم كان بدرجة أقل، وبطرق أقل وضوحاً.

الحصول على سلاح الرجل الأبيض، ذلك كان همّ (شاكا) الأكبر. ورغم أنه، فيما بعد وصل إلى قناعة بأن سلاح الزولو أفضل من السلاح الأوروبي، فإن ذلك لم يمنعه أن يسلّح فرقة من جيشه بالبنادق. كان على وجه العموم يريد أن يعرف (أسرار) الرجل الأبيض، ويعلّمها شعبه. لذلك تحاشى الصدام مع الإنجليز. وفكّر جدياً أن يرسل بعثات من شباب الزولو ليدرسوا في إنجلترا.

في عام ١٨٢٤، زارت بعثة تجارية بلاد (الزولو)[٢]، ولاحظت بكثير من الإعجاب (الرّفاه والاستقرار) الذي وجدته. لكن أفراد البعثة دهشوا دهشة عظيمة، حين رأوا (شاكا) ـ وكان يحادثهم ويمازحهم وهو يستحمّ ـ يأمر فجأة بقتل أحد خدمه، فأخذ الرجل في الحال، وكُسرت عنقه.

هذه هي الصورة التي استقرت في عقول الأوروبيين عن الزولو. الإعجاب من ناحية، والنفور والتقزز من ناحية أخرى. أسر الزولو خيال الأوروبيين، والإنجليز خاصة، بدرجة لم تحدث مع أي شعب أفريقي آخر. أعجبوا بأجسامهم الفارعة القوية، وذكائهم وحيويتهم وشجاعتهم. وقد وصفهم (لفنجستون) بقوله:

«لولا ألوانهم وشعرهُم الأكرت، لحسبتّهم من أرقى سلالات الجنس الأوروبي».

أجيال من الأطفال الإنجليز، الذين تربوا على روايات (رايْدر هقرْد)[٣] فُتنوا، كما فتنوا بالهنود الحمر، بصفات البطولة والشجاعة عند الزولو. لكنهم بالمقابل، كرهوا فيهم طبيعتهم الدموية، وغاراتهم المدمرة، وحكامهم المستبدين.

حين اغتيل (شاكا) عام ١٨٢٨، كان قد وصل إلى نهاية الطريق، ولم يعد لديه شيء أفضل يقدمه لشعبه. حاول كما فعل بعض الحكّام الآسيويين في القرن التاسع عشر، أن يهيىء شعبه للبقاء والاستمرار، إلّا أنه كان غارقاً في الماضي إلى درجة جعلته عاجزاً عن العبور إلى المستقبل الذي تراءت له علائمه على البعد. أرهقت قواه، استسلامُه للخرافة، وتماديه في القسوة، وإكثاره من الحريم. ورغم ذلك، فإنه لا يُنكر أن الأمة التي صنعها بالدم والحديد، قد عاشت بعده، وأظهرت قدرة على التطور والتقدم، وارتفعت فوق الهزائم التي كبّدهم إياها البوير بأسلحتهم النارية المتفوّقة.

لو أن دولة الزولو ـ وكذلك مصر ـ تُركت وشأنها، لاستطاعت أن تصير دولة عصرية، ودولة أفريقية قُحّة في الوقت نفسه. لعلها كانت تضيف إلى حصيلة التجارب الإنسانية، تجربة نادرة بحق، أكثر طرافة وأصالة من أي شيء يمكن أن يقدمه البوير الأوروبيون في جنوب أفريقيا.

كان نصرهم على القوات البريطانية في معركة (إيساندْلوانا) من الانتصارات القليلة التي أحرزتها القارة الأفريقية ضد قوى الاستعمار الأوروبي. كانت صلابتهم في القتال أمراً مدهشاً بحق، لم يواجه الإنجليز مثله من قبل. لكنهم هزموا لسوء الحظ، حين واجهوا المدافع البريطانية بالرماح. وقد وصف مراسل حربي شجاعتهم، وهم

يواجهون مطراً من الرصاص في معركة (أولندي) بقوله:

«هؤلاء الزولو يتقدمون إلى الموت ببسالة لم يعرف مثلها أي جيش في أي عصر من أي جنس».

ذلك كان من أجل الحصول على الذهب والماس. كانا هما الإغراء الحقيقي للغزو الأوروبي لجنوب أفريقيا. وقاد الحملة رجال مثل (رودس). كان من طينة (ركفلر) و(مورقان) اللذين شيّدا أمبراطوريات من نوع آخر في أمريكا. وفي لندن، عُرف القسم المختص بجنوب أفريقيا في بورصة المال بـ (سِرْك الكافر) إلى قدس الأقداس الأوروبي هذا، تسارعت أفواج من المضاربين والمحتالين، بينهم رجال لم تكن أعلام الدول تعني لهم أكثر من وسائل للربح وكان بينهم عدد من اليهود.

كانوا أناساً لا جذور لهم ولا انتماء. وقد وجدوا ترحاباً وأبواباً مفتوحة على أعلى المستويات. وما ذلك إلّا لمهارتهم في التلاعب بالعملات والأسهم في سوق المال، وقدرتهم على إقناع أصدقائهم الأرستقراط، أن اكتناز المال، لا يتعارض مع تقاليدهم الموروثة، كما كانوا يعتقدون. وبنهاية القرن، بدأت الأصوات تتعالى من المصلحين وحماة الأخلاق، مندّدة بفساد الطبقات العليا وانحلالها. لكن هؤلاء كانوا قد وجدوا في النعيم الذي يجلبه الثراء، ما يصم آذانهم عن هذه الأصوات.

هذا، وقد ألهبت الصحافة الرخيصة خيال الفئات الفقيرة، بأن أحلام الثراء، يمكن أن تتحقق. وكانت مزاعم (تحضير الشعوب البدائية) لا تكاد تُخفي الفلسفة التي عبّر عنها «الوحش» في أبيات الزجل الشعبية:

سواء كنتَ حيّاً أو ميّتاً
فإني سوف أطحن عظامك
وأصنع منها خبزاً لطعامي».

(١) توسان Toussaint، قاد ثورة كبرى من العبيد في هايتي عام ١٧٧١، وأنشأ أول جمهورية زنجية. قضى عليها نابليون عام ١٨٠٢، وأخذ (توسان) إلى فرنسا حيث مات في السجن.

(٢) يشير إلى بعثة (فارْول) و(فِنْ) التي ورد ذكرها في هذه المقالات.

(٣) هقرد.. Sir Henry Rider Haggard ـ (١٨٥٦ ـ ١٩٢٥) كان روائياً واسع الانتشار، ألف أكثر من ثلاثين رواية، أشهرها «مناجم الملك سليمان» و«هي»، وأحداث كلتيهما تدور في أفريقيا.

جرّني إلى الحديث عن الزولو - ولعلني انطلقت فيه على رِسْلي - أنني لقيتُ ذلك الإنسان المضيء، برفّسر ماسيسي كونيني. هكذا تمضي الحياة. شِعْبٌ يؤدي إلى شعب ودرب إلى درب. وقد كنت كما قال الشاعر «مهاجراً، له كل يوم رفقةٌ وصحاب».

وكان ذلك من حسن التوفيق، فليس أجمل في هذه العاجلة، بعد أن تكون قد قضيت «من منى كل حاجة» من مجالسة الخيرين والأذكياء وأهل العلم. وكلها صفات اتفقت لهذا الرجل الصالح، ماسيسي كونيني. كان ذلك منذ عامين أو يزيد قليلاً، في أمريكا، في جامعة براون، في مؤتمر عن الأدب الأفريقي، نظم له برفّسر (روبرت كوڤر - Robert Coover)، الذي هو أيضاً كاتب روائي واسع الشهرة عندهم.

ويا سبحان الله، ما أعجب أمريكا. هذه الجامعة العتيدة هي في مدينة (برُفدنْس) في (رود آيلند). وقد خبّروني أنها بمثابة عاصمة لعصابة المافيا، وأنهم يملكون كل وسائل العيش في المدينة. إنما الحياة تسير هادئة على السطح. البلدة آمنة، والحوانيت ملأى بالبضائع، والناس طيبون دائمو الابتسام شأْنَ الأمريكان. كل الذين تحمله في خيالك عن (آل كابون)، وعصابات الإجرام في (شيكاغو)، لا أثر له.

هنا عمارات متطاولة وشركات عملاقة (ترنسناشنال)، ومديرون ورجال أعمال تدربوا في (هارفارد) و(ييل) و(برنستن). كيف يستقيم هذا وهذا؟ وكيف تكون محجة العلم العريقة هذه، في هذه البيئة؟ لكن لعل أمريكا هكذا، مثل الحياة، مزيج من الخير والشر، والمُثل النبيلة والأعمال البذيئة. مزيج من القوة والضعف، والرقة والعنف. وقد تأكّد لي في هذه الزيارة، أكثر من أي زيارة أخرى، أن أمريكا ليست شيئاً واحداً. إنها مجموعة أمم ومجموعة دول.

اكتشفت أيضاً بمحض الصدفة، أن مدينة (برفدنس) هي مهبط رأس ذلك الكاتب الغريب (اتش. بي. لفكرافت - H.P. Lovercraft). كنت أتمشى، فإذا شيء مثل الاحتفال، فدخلت، فإذا أنا في المؤتمر السنوي لجمعية أصدقاء لفكرافت. هذا كاتب عجيب حقاً، شطح به الخيال بعيداً فكأنه على حافة الجنون. وقد رسم في قصصه عوامل مُرعبة، أكثر بمراحل مما فعل (إدجار آلان .بو) وقد تحول على مرور الزمن إلى أسطورة، وله معجبون يجتمعون له مثل أصحاب الطقوس. ما كنت أعلم أن (برفدنس) هي مدينته، كما هي مدينة المافيا.

دلّني عليه منذ عشرين عاماً، كاتب سويسري اسمه (هوبر) عرفني عليه أخي عبد الرحيم الرفاعي في (بيرن). وقد أسلم وأسمى نفسه (أحمد) وأبحر بعيداً في الإسلام. هو نفسه قصة، كما أن لڤكرافت قصة. وهي قصة أخرى.

وجدتُ في ذلك المؤتمر حشداً من الأفريقيين لم أشهد مثله من قبل، كتّاباً وشعراء ومفكرين وأكاديميين. وتلك، والحق يُقال، من أيادي أمريكا علينا، مهما بدا لنا من أمرها، إذ (رَبْعنا) هداهم الله، لا يصنعون مثل هذا، خصوصاً عند ملتقى النيلين، حيث إخواننا يجمعون الناس في مؤتمرات لإصلاح العالم ضربة لازب. وكانوا يقولون إن السودان (جسر) بين أفريقيا والعالم العربي. لكنهم الآن رحلوا عن (الجسر) إلى (أرض المعاد)، فأصبح السودان وطناً لكل مسلم ومسلمة في مشارق الأرض ومغاربها، يحق لهم أن يحملوا جنسيته.

ما أجمل ذلك! ولكن، يا للعجب لـ (وطن) يسحب جوازاته من مواطنين ولدوا فيه وولد آباؤهم وأجدادهم، ثم يستورد مواطنين من الخارج. الله غالب. ولعل إخواننا هؤلاء يرون ما لا نرى، ويسمعون ما لا نسمع.

كان بين من لقيتُ ثمة، برفّسر مزروعي، الذائع الصيت، وهو عربي من أصل عماني، بل من الأسرة التي حكمت في زنجبار وشرق أفريقيا، وهو اليوم كيني بالمواطنة. ومنهم الكاتب الصومالي نور الدين فرح، والشاعر والروائي النيجري الحائز على جائزة نوبل (وولي شوينكا). وقد أحزنني أنني لم أجد الكاتب النيجري الكبير (شنْوا اشيبي)، وكنت قد تعرفت به منذ عشر سنوات في برلين. لم

يستطع المشاركة، فقد أصيب في حادث سير، ترك نصفه مشلولاً.

(وولي شوينكا) بالمقارنة له، مثل المرحوم يوسف إدريس إزاء أستاذنا نجيب محفوظ، مدَّ الله في أيامه. كان يوسف إدريس لا يكاد يقوى على حمل الموهبة الضخمة التي حباه الله بها، كثير الاندفاع والتهور والتوقد الذهني. كذلك شوينكا. وقاده اندفاعه إلى تبنّي قضايا خاسرة، مثل تأييده لانفصال (بيافرا) ودخوله السجن بسبب ذلك.

ليس كذلك (شنْوا أشيبي) ولا نجيب محفوظ، فهما ثابتان ورصينان يحملان عبء الفن بصبر وجلَد.

ولأن (شوينكا) تعلّم التمثيل أيضاً، فحين وقف على المسرح ليقرأ من كتابه (أكي) الذي يحكي فيه قصة طفولته، وقف وقفة ممثل راسخ القدم. منفوش الشعر كث اللحية متوهج العينين آبنوسي اللون يميل إلى الطول. أفطس الأنف ولكن تقاطيع وجهه في مجموعها تحدث أثراً من الجاذبية، وعليه (كَرِزْما) واضحة. قرأ كما وصفوا أن (شارلز دكنز) كان يقرأ. أمسك بنواصي الجمهور طيلة ثلاث ساعات، كأن على رؤوسهم الطير.

كاتب شامخ حقاً، يستحق الاهتمام من القارىء العربي. ومن حسن الحظ أن الدكتور محمد إبراهيم الشوش قد أصدر عنه كتاباً، أرجو أن يجد رواجاً.

إنما الفائدة الكبرى التي ذهبت بها من ذلك المؤتمر، كانت أنني لقيت (ماسيسي كونيني) وذلك النفر من كتّاب جنوب أفريقيا.

حتى العالِم النابه الذي يشار إليه بالبنان، برفّسر علي المزروعي، لم يخلُ من المرارة التي وجدتها عند غالبية المفكرين الأفريقيين والكتّاب في ذلك المؤتمر. أفكاره في العادة متّزنة رصينة، ولكن لأنه من أصل عربي، وملامحه عربية لا لُبس فيها، فكأنه كان يحاول أن يثبت أنه لا يقل أفريقيّة عن الآخرين. وقد لاحظت ذلك في كل من لقيتهم من المفكرين المنحدرين من أصول عربية، من كينيا وزنجبار ويوغندا وتنزانيا.

الكاتب الصومالي نور الدين فرح، صار أقل تطرّفاً مما كان في برلين منذ عشر سنوات، حين أنكر أنه عربي، وقال إنه لا يكتب بالعربية لأنها لغة دخيلة على الصومال.

تقدّمت به السن، وعلّمته التجارب، وصار أعقل، وقد رأيته يغضب

أحياناً، ويتصدى للدفاع عن العرب ضد التهم التي توجّه لهم عادة في مثل هذه المؤتمرات. الدم العربي، قلّ أم كثُر، لا يطلّ أبداً، ولا يذهب هدراً.

رحمتاه للعرب! أصبحوا bete noire هذا الزمان، أو (ملطشة) كما يقول المصريون بنو أبينا. كل واحد رماهم بدائه وذهب. حمّلوهم وزر تجارة الرقيق، وكراهية اليهود وكل المعضلات الحضارية التي صنعوها، رموها على كاهل العرب. والعرب كما يقول صديقنا أخو الأخوان، حسين العودات في دمشق، (لُقْطه)، أكتافهم عريضة، وصدورهم واسعة. وقدرتهم على الاحتمال لا تُحد.

إنه أمرٌ كان أحرى أن يحرّك أريحياتهم، فالأمة حين يتقاوى عليها الضعيف، ويتطاول عليها حتى الذي ليس هو بهاشمي ولا من بني عبد المدان، تكون قد فقدت هيبتها، ولم يعد يُرجى منها خير ولا يُخشى منها شرّ. إنما حاشا لله.

لذلك أفرحني، كما يفرح الذي يرى قبساً من ضياء، في جوف ظلام مدلهم، أن الكتّاب والشعراء والمفكرين السود من جنوب أفريقيا، لا يحقدون على العرب، ويؤمنون بالإخاء العربي الأفريقي. وأعجب من ذلك، أنهم رغم نضالهم المرير ضد القهر العنصري، وكل معاناتهم من استبداد البوير، لا تحسّ أنهم يحملون أي مرارة. ينظرون إلى المستقبل نظرة إيجابية متفائلة.

ربما لأنهم يحسّون أنهم صنعوا معجزة، وهو كذلك، فقد كان الخلاص من قبضة البوير في جنوب أفريقيا أصعب بمراحل، من الخلاص من الاستعمار الفرنسي في الجزائر. إنهم الآن على أبواب

الاستقلال، بزعامة قائد غير عادي، حين تُقاس به بعض الزعامات في أفريقيا تبدو صغيرة الحجم جداً.

إذا هبّت رياحهم رخاء، كما نرجو، ولم يتعرّضوا للمحن التي ابتليت بها بعض بلاد أفريقيا، فسوف يكون لهم تأثير ووزن. سوف يدخلون معترك السياسة في القارة الأفريقية، بتجربة فريدة في النضال، وخبرة سياسية واسعة، ونظرة ناضجة متوازنة.

ولعلّ إخواننا في جنوب السودان يجدون عبرة في ذلك. صاروا يرددون الآن، بطريقة كأنهم اتفقوا عليها أن الشماليين في السودان «أسوأ من البيض في جنوب أفريقيا».

يا سبحان الله! أين عرب السودان، وقد كانوا هم أنفسهم ضحايا الاستعمار الأوروبي، من البطش العنصري الوحشي في جنوب أفريقيا، حيث كان البوير، كما وصف المؤرخ (الأوروبي) المُنصف، برفسر كيرنان «يدفعون أمامهم حاجزاً بشرياً من الأفريقيين ويطلقون النيران فوق رؤوسهم على القرى التي يهاجمونها. وحين يدخلونها ينهبون الماشية ويغنمون النساء والأطفال (...) كانوا يفعلون أحد أمرين:

الشعوب الأفريقية التي يخضعونها، الذين يمكن أن يستفيدوا منهم، يسترقونهم، والذين لا يؤمّلون فائدة منهم، يبيدونهم».

هذا حدث بوحي فلسفة عرقية غاشمة. انتحلوا لها ذرائع من علم الأجناس، وفي الإنجيل، وزعموا ـ معاذ الله ـ أن الرب قد باركها. هل صنع عرب السودان مثل هذا؟ إنهم جاءوا بكتابهم الكريم الذي لا يفرق بين عربي ولا عجمي ولا بين أحمر وأسود، فاختلطوا

وتزاوجوا وعاشوا وأعاشوا وجاوروا وأجاروا. وإن كان قد خلف من بعدهم خلف سوء، ووليت أمورهم حكومات رعناء، فإن الذي صنعته في الجنوب، كان بسبب الجهالة ولم يكن بسبب سوء القصد. وإن كانت هذه الحكومات قد أساءت في الجنوب، فإنها قد أساءت في الشمال أضعاف أضعاف.

أفريقيا، رغم أي شيء، هي خدَن العالم العربي في نهاية الأمر، رغم الأحقاد والحزازات والذكريات الأليمة أحياناً، من الماضي القريب أو البعيد. أفريقيا أكثر (عروبة) مما يعترف بعض الأفريقيين، والعالم العربي أكثر (أفريقيّة) مما يعترف بعض العرب.

بل إنني أذهب إلى حدّ القول، إن العرب، كما يبدو لنا اليوم، قد أخطأوا حين عبروا البحر ودخلوا إسبانيا. ثم ارتكبوا خطأ آخر حين عبروا جبال البرنيز وحاولوا أن يحوزوا فرنسا. لقد دخلوا أرضاً ما كان ليسمح لهم أن يستقروا فيها، طال الزمان أم قصر. لا عجب أن أوروبا قد تكالبت عليهم وأجلتهم عن التراب الأوروبي بعد نحو ثمانية قرون، ولم يبق منهم إلّا بعض كلمات في اللغة، وبقية أطلال في غرناطة وقرطبة وأشبيلية.

لو أنهم اتّجهوا جنوباً في أفريقيا، لوجدوا أرضاً تعرفهم ويعرفونها، لهم فيها صلة ورحم منذ عشرة آلاف عام أو يزيد.

لأجل هذا، يا رحمك الله، مضيتُ على رسلي، أغذّ السير في شعاب تاريخ الزولو. لقيت عندهم أحياناً ما ألقى من عبْس وذبيان. وكان شاعرهم (مسيسي كونيني) يسير أمامي، ويغنّي، كما غنّى زهير في غابر الزمان.

أقول معزياً نفسي أنه لم يتغير شيء. إنما هي درجات من الفراق. هو في الدوحة وأنا في لندن. أو حيثما أكون. سوف يطوف بخاطري، كما كان في الحياة. الذي تغيّر هو أنني لن أستطيع أن أكلمه بالتلفون، ولن أسمع صوته يجيئني دون توقع، في وقت متأخر من الليل عادة. وتطول المكالمة فأقول، وأنا أعلم أوضاعه وأعباءه:

«هذه المكالمة سوف تكلفك كثيراً».

يضحك ولا يبالي. لم يكن يخاف الحياة ولا الموت. من هؤلاء الفقراء الأثرياء، الذين لا يبالون. تراه (محدِّراً) عمامته، متماسكاً على نفسه. فيه رهافة حسّ المحس، وتحضر الأمدرمانيين، وخفة روح المصريين، وكبرياء الإنسان الذي أخذ أقل، وهو يعلم أنه يستحق أكثر، ولا يبالي.

كنت أرى فيه أشياء من عمي الأكبر أحمد، الذي اغتنى حين كان الناس فقراء وحين اغتنى الناس، صار هو فقيراً. ولم يسأل في هذا ولا ذاك. وكان ذلك سبباً واحداً من أسباب كثيرة، حببت إليَّ محمد سعيد سيد أحمد.

بتلك الطريقة اللامبالية، قال لي في الدوحة منذ أسابيع وأنا أعلم كم يمضّه الألم:
«يا خوي المرض دا ما في زول بينفد منّه».

قلت له:
«لأن الطب لا يعرف لماذا يحدث هذا المرض، كذلك لا يعرف لماذا يذهب. وعلى أي حال الأعمار بيد الله».

وجدته رائقاً ذلك النهار، في مستشفى حمد في الدوحة. بدا لي هو هو، محمد سعيد، الذي عرفته وبادلني وداً بودّ، طيلة ما يقرب من عشرين عاماً. من (فِرّيق) في ديار المحس، من ذرية قوم صالحين. قضى فترة صباه الأول في مصر، فجُلل حب مصر، ولكن كما يحب السوداني الأصيل، بلا ضوضاء. وفي الخرطوم دخل كلية غوردون التذكارية في الثلاثينيات، فكان من ذلك الجيل الذي لم يأتِ بعده جيل يماثله في تاريخ السودان.

كانوا نخبة بحق، يتقنون أي عمل يتولونه، غرس فيهم أساتذتهم الأفذاذ، من السودان ومصر وبريطانيا وسورية ولبنان، حب المعرفة لذاتها، وسعة الأفق ومرونة العقل.

عمل مترجماً، وكان يتقن العربية والإنجليزية، وصار رئيساً

للمترجمين في أول برلمان سوداني بعد الاستقلال، ولفترة مسؤولاً عن القسم الصحافي في رئاسة الجمهورية، ثم مسؤولاً عن الإعلام الخارجي في وزارة الإعلام. وجاء إلى قطر عام ١٩٧٥ وعمل في إدارة المطبوعات والنشر، ثم صار لسنوات مسؤولاً عن الرقابة على الصحف الأجنبية.

كنا وحدنا في مستشفى حمد في الدوحة، في تلك الساعة من النهار، حين ينقطع الزوار. يضحك كما عهدته أيام الصفاء قبل أن يدهمه المرض، يحسّ وخز الألم فيصمت إلى أن تمضي النوبة، فيعود كما كان.

يدخن كثيراً كعادته، ولكن مرض السرطان لم يجئه من باب الرئة، بل أصابه في البرستاتة. قلت له:
«من مأمنه يؤتى الحذِر».

ضحك حتى خيِّل إليَّ أنه شفي تماماً، لا بد، وهل يضحك بهذا الانطلاق من يعاني من السرطان؟

قال:
«يقولون إن سرطان البرستاتة يتغذى بهورمونات الذكورة، فيجرون عملية تقلل إفرازها. نوع من الإخصاء. لا أدري لماذا لم يعملوها لي؟ لعلّهم ظنوا أني أحتاج إليها. ما حاجة رجل عدّى السبعين إلى هورمونات الذكورة؟».

دولة قطر، بارك الله فيها، أعانته على السفر إلى الخارج، فاختار الهند، لأنه كان محباً للهند، ويشعر بتعاطف عجيب مع ثقافاتها وحضاراتها. وكان يسافر إليها كثيراً يسيح في أرجائها، الشهرين

والثلاثة. وقد آثر أن يرسل أبناءه إلى جامعاتها.

جزى الله خيراً ذلك الإنسان الكريم، عيسى ابن غانم الكواري. منذ هو وزير للإعلام، ثم وهو وزير لشؤون القصر، وهو لا يألو في رعاية محمد سعيد سيد أحمد. جدّد له عقد العمل مراراً بعد أن جاوز سن الستين، ثم بعد أن جاوز سن السبعين. كان يقدّر كفاءته ويعلم أنه لا يوجد في المنطقة كلها ـ دون أدنى مبالغة ـ من يتقن موضوع رقابة الصحف الأجنبية مثله. وكان محمد سعيد، وهو إنسان جبل على الوفاء، يقدر له ذلك تقديراً عميقاً.

كنت أسعى لعلاجه في المستشفى التخصصي في الرياض، فلذت بالرجل الهمام السبّاق إلى المكرمات، الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، فما خيّب ظني، بل هبّ من فوره كما عهدتُه في الملمّات.

لكن محمد سعيد كان قد عاد من الهند، وهو أقل ثقة في الشفاء، قال لي:

«يا أخي بدل السفر والتعب بلا فائدة، خذ معك التقارير الطبية وصور الأشعة، وإذا الأطباء قالوا في فايدة أسافر».

لسوء الحظ، قال الاختصاصيون في الرياض، أن المرض قد تمكن من العظام، وأن لا فائدة. وكان عسيراً عليَّ أن ألطِّف عليه الأمر، ولكنه تقبّله برباطة جأش، وقال لي على التلفون:

«كنت أحسّ أنهم سوف يصلون إلى هذه النتيجة».

لم يغب عن بالي وأنا أتشبث بأستار الكعبة، وأنا في الروضة المباركة في مدينة الرسول الأمين. ثم ها أنذا الآن، في هذا العالم البعيد، في بوسطن في أمريكا. كنت أخوض في غمرات شؤون أخرى، فجأة تقلصت وأخذت حجمها الحقيقي حين صعقني النبأ. ما أمضّ رحيل صديق قريب إلى القلب.

كنت أسميه (شيخ العرب) لأنه كان شهماً أخا إخوان، متحزّماً متلزّماً كما نقول. ويا طالما سرّى عني حين وجدت الكآبة في الحياة. ويا طالما استفدت من حكمته وخبرته.

وقد شاء له الله أن يرحل عن الدنيا قُبيل انتهاء عقد عمله. كان إنساناً حيياً مترفّعاً وما كان ليرضى أن يبذل جهداً في تحديد العقد. فرحل قبل أيام من نهاية الشهر.

وكأنما أراد أن يعبّر للهند عن أقصى درجات الود، فأعطاها جثمانه. فجأة، وهو في المراحل الأخيرة من مرضه، أصرَّ أن يعود إلى الهند. وتوفّي بعد أسبوع واحد من وصوله، فدفن بها. وبذلك أهدى إلى الهند بضعة من جسد السودان.

يا للحسرة. حين ترزأ أخاً كهذا، كأنما تنطوي مساحة واسعة، عامرة بالتجارب والذكريات والمودة، فتضيق الدنيا بمقدار ما أخذ معه الراحل برحيله. لكنني سوف أراه بعين خيالي وأسمع صوته، وسوف يسرّي عني من وراء حجب الغيب، كما كان في حياته.

رحمه الله رحمة واسعة، وأحسن عزاءنا فيه.